الوعي الإسلامي

الواقع المعاصر وآفاق المستقبل

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج

السيد محمد تقي المدرسي



دار المحجة البيضاء



الوعي الإسلامي

الواقع المعاصر وآفاق المستقبل


بسم الله الرحمن الرحيم

الوعي الإسلامي

الواقع المعاصر وآفاق المستقبل

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

دار المحجة البيضاء

الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

ISBN: 978-9953-567-39-

تعريف الكتاب

* الكتاب: الوعي الإسلامي.. الواقع المعاصر وآفاق المستقبل.
* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
* الطبعة: الثانية، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م. (٢٧٢ صفحة).
* تحقيق: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.
* الناشر: دار المحجة البيضاء



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ ـ هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ ـ ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ ـ E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ،

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ



مقدمة الطبعة الأولى

لا زالت أبصار المسلمين ترنو إلى ذلك المجد الغابر، الذي حققه الرعيل الأول من أبناء المجتمع الإسلامي، وهم يأملون أن يعود لهم ذلك المجد يوماً ما.

فمتى يا ترى يتحقق هذا الحلم الجميل، وكيف؟

ولأجل أن نخطو خطوات حثيثة لتحقيق هذه الأمنية، لابد من إنارة الطريق كي لا نُخْطِئَهُ؛ والكلمة الصالحة في هذا المجال نور، والرؤية الواضحة هي مشعل يهتدي به الإنسان إلى السبيل القويم.

إذ إن الكلمة البيِّنة والرؤية الهادفة تخلق في الأمة الوعي، والوعي بدوره يفتح للإنسان آفاق، ويفجر فيه الطاقات، ويصنع له المعجزات.

ومن غير الوعي يعيش الإنسان الانحطاط، ومن ثم الفشل والهوان.

ولا نبالغ إن قلنا: إن وعي الأمة إذا بلغ مستوى النضج فحينذاك تحتل الأمة الإسلامية موقع الصدارة بين الأمم، وتبرز كقوة فاعلة في الساحة العالمية.

ولا نشك في أن دول الاستكبار قد فهمت هذا السرّ، فراحت تسعى إلى غرس التخلف والتبعية في نفوس أبناء أمتنا المجيدة، كي يتسنى لها السيطرة التامة على مقدراتنا وثرواتنا ومواقعنا الاستراتيجية.. دون أن تواجهها عقبات كبيرة.

ولأجل ترسيخ ذلك عملت على إشاعة الاستهانة بالقيم، والاستخفاف بالمبادئ، واليأس من الإصلاح.. حتى لا يُحَدِّث أحد نفسه بأن يفكر في نهضة، يُعيد للأمة وعيها ورشدها.

وإذا ما أدرك شخص ما خطر الاستعمار، وضرورة مقاومته، تجد أصابع الاتهام تتوجه إليه، والإشاعات المغرضة تنصبُّ عليه صبًّا. كل ذلك حتى يترك هذا المسير ليدخل في نفق مظلم، حتى تتكسر تطلعاته في صدره، وتموت طموحاته في شخصه، ويُوصد لسانه حتى لا ينطلق ليكشف الحقائق، ويميط الحجب عن الزيف.. كي يبقى الناس يعيشون في تيه الجاهلية، دون أن يفتحوا عيونهم على بصائر الدين، وهدى الوعي.

وعلى امتداد التاريخ المعاصر جرت محاولات كثيرة، من قبل أشخاص وتجمعات، لإنقاذ الأمة من هذه المؤامرة، عبر مساهمات ملحوظة ومشاريع متعددة لرفع مستوى وعي الأمة،

ولا زالت الحاجة إلى محاولات أخرى لابد منها، حتى يظهر الحق جليًا، ويفضح الباطل، وتترسخ المبادئ، وتستوعب القيم.

ولا يخفى أن هذا التطلُّع لا يمكن أن يُحقِّقه فرد واحد، أو مجموعة مُعيَّنة هنا أو هناك، بل إنه مشروع ليس بالهَيِّن، يحتاج إلى مشاركة أكبر قدر ممكن من أبناء الأمة الواعين، كلّ حسب طاقته، وكلّ حسب فاعليته، ولينطلق كل من خندقه.

وهذا الكتاب (الوعي الإسلامي) هو محاولة جديدة لبعث الوعي في الأمة، آملاً أن يكون سبباً لتحقيق آمالها. وهو في الأصل مجموعة أحاديث ألقاها سماحة المرجع الديني آية اللّه العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه اللّه.

نسأل اللّه العلي القدير أن ينفع المسلمين بهذا الجهد المتواضع، إنه ولي التوفيق.

مكتب المرجع الديني آية اللّه العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

ربيع الأول/ ١٤١٤هـ



مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير الأنام وسيد المرسلين محمد وآله الهداة المرضيين.

وبعد..

الوعي الإسلامي نقطة تحوُّل مهمة في بناء شخصية الإنسان الرسالي، كما أنه أيضاً نقطة تحوُّل مهمة في بناء الأمة الحضاري.

الوعي الإسلامي ليس مجرد كلمات، أو شعارات.. وإنما هو تعبير صادق عن ثقافة المجتمع، ومن خلاله يرتسم الخط البياني لنهضة الأمة وتطور الإنسان، والإنسان الذي لا يملك الوعي اللازم، تراه يعيش أبداً في حضيض البشر.

إن الأمة التي ينقصها الوعي الكافي، هي الأخرى تعيش أبداً في مطامير التخلُّف ووديان الانحدار.

ذلك لأن الوعي الإسلامي هو حقيقة الفقه، ومعدن الحكمة، وسبيل الرشاد.. ومن خلاله يُمنح الإنسان ميزاناً ليُميِّز بين الحق والباطل، بين الصح والخطأ، بين الخير والشر.. فيخلق في ضميره بوصلة تُحدِّد له الاتِّجاه الصحيح في كل حدث وموقف.. فَيُوَلِّي وجهه شطره من دون أي تردد.

فلكيلا يتيه المسلم، وهو يعيش معترك الصراع في حياته اليومية.. ولكيلا تفقد الأمة الإسلامية بوصلتها وهي تمخر في عباب بحار الأزمات.. كان من الضروري تنمية الوعي الإسلامي ورفع مستواه في ذواتنا وفي واقع مجتمعنا المعاصر.

وكخطوة في هذا الاتِّجاه تم طباعة هذا الكتاب (الوعي الإسلامي) لسماحة المرجع الديني آية اللَّه العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه اللَّه ورعاه عبر دار الكلمة الطيبة في بيروت عام ١٩٩٥م - ١٤١٥هـ. وقد نال هذا الكتاب استحسان الكثير. وتبعاً لذلك اقتُرح تجديد طباعته لأهمية محتواه، وفي الوقت ذاته توخّياً لنشر فائدته، وإيصال رسالته إلى أكثر عدد ممكن.. وبدورنا لبَّينا هذا الطلب، وقبل إرسال هذا الكتاب للطباعة من جديد، عمدنا إلى مراجعته، وأجرينا عليه التعديلات اللازمة، كما أضفنا إليه أحاديث جديدة لسماحة المرجع كان قد ألقاها بعد نشر الكتاب في طبعته الأولى.

نرجو أن نكون قد وُفِّقنا لتحقيق هذا العمل على أحسن وجه ممكن، لينعم القارئ الكريم بفيضٍ أكثر من الفائدة.

راجين من الله تعالى أن يجعل هذا الكتاب كلمة طيبة كشجرة طيبة تُؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، والله ولي التوفيق.

مكتب المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

٢ ذي القعدة ١٤٣١هـ







القسم الأول

المُنْطَقُ



حب اللّه طريق السعادة

منذ أن يولد الإنسان يظل متعطشاً يبحث عن مفقود، فعندما تتفتق مواهبه يتطلع بحب عميق للجمال. وهكذا حينما تتفاعل في نفسه الأحاسيس الجياشة شابًا، أو حينما يتعلم أو يتنعم أو يتألم.. فإنه يظل يبحث عن شيء ضائع لا يعرف كيف يهتدي إليه، ويتفقد محبوباً لا يدري كيف الوصول إليه؛ فيبحث عن حبيب مفقود ليس بغائب، وعن غائب هو شاهد وفوق كل شاهد وهو اللّه سبحانه وتعالى الذي هو أُمْنِيَّة الإنسان والحلم الذي ينشده.

وفي أكثر الأحيان يضل الإنسان الطريق إليه -تعالى-، والقليل من الناس هم الذين يحظون بمعرفة الحبيب، ففي التعرف عليه تكمن السعادة الحقيقية والحب العميق الذي يبعث في الفرد عشق الشهادة واختيار الموت رغم أن الموت ليس بالشيء العادي عند الإنسان، ولكن أتدري لماذا يحلو للعاشقين فيهرعون إليه سراعاً؟ لأنهم قد اكتشفوا أن وراء الموت لقاء مع الأمل المنشود، لقاء الحبيب بالحبيب، وعندئذ تتحوّل مرارة الموت إلى حلاوة

دونهـا كلّ حـلاوة، ولذلة فـوق كلّ لـذة، ونعمة لا يسـتطيع خيال الإنسـان أن يسبر غورها، أو يقطع مداها.

وهـذه صـورة مـن ذاك الواقـع. ففـي يـوم عاشـوراء حينما استشـهد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام، انبرى القاسم ابن الإمام الحسن عليه السلام لعمه الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: وأنا أُقْتَل؟

فأشفق عليه، ثم قال: يا ابن أخي؛ كيف الموت عندك؟

قال: يا عم؛ أحلى من العسل.

قال: إيْ واللَّه؛ فذاك أحلى[1].

ومـا هذا الجواب له وحـده، وإنما لكل إنسـان مؤمن عاش طويلاً يحلم بيوم اللقاء، يوم يلتقي بالرفيق الأعلى.

تـرى عـمَّ يبحـث الإنسـان؟ ومـاذا يريـد مـن حياتـه وإلامَ يطمح؟

عندما يجوع يزعم أن سـعادته في كسـرة خبز يسدّ بها رمقه، فـإذا مـا نالها ظـن أن هناءه في شـربة مـاء تُطفئ ظمـأه، ولكنه في الحقيقـة ما يـزال بعيداً عن هدفـه، فالطريق وعر طويـل، ويظل لا يـدري عَـمَّ يبحث، عن الراحـة؟ إنه ينام فإذا استيقظ وجد نفسـه ما يـزال باحثـاً، عـن الرئاسـة.. كَلَّا، فهـو إذا أصبـح رئيسـاً هانت الرئاسة عنده أيضاً...

(١) الهداية الكبرى، الحسين بن حمدان الخصيبي، ص٢٠٤.

الطريق إلى السعادة الحقيقية

إن السعادة الحقيقية تكمن في أن يصل قلب الإنسان إلى رَبِّ القلوب، وحبيب النفوس، وأنيس العارفين، وحبيب قلوب الصادقين.. فعندئذ يجد القلب مُنيته، ويرضى إذ يجد بُغيته كما قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[1].

أَوَتدري ماذا أعطى ربنا تعالى لرسوله ﷺ حتى رضي؟.

لقد منحه نعمة لقائه حينما خاطبه قائلاً: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[2]، وهذه هي الأمنية.

نحن نعيش ضلالاً بعيداً طيلة أعمارنا، إلّا خلال تلك اللحظات التي تتصل فيها القلوب باللّٰه تعالى عبر السجدات الطويلة، والنوافل الليلية، كما أشار إلى ذلك ربنا سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾[3].

فلن يشعر بلذة الطاعة من صلى صلاة خفيفة بركعات مهزوزة وسجدات كنقر الغراب، ولن يحس بمتعة المناجاة من قرأ دعاء عابراً، بل من يمعن في طرق الباب.

يُروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ما زلت

(١) سورة الضحى، آية ٥.
(٢) سورة الإسراء، آية ٧٩.
(٣) سورة الإنسان، آية ٢٦.

أردد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حتى سمعتها من قائلها»[1].

المناجاة تخرق الحجب

وأنت أيضاً عليك أن تُكرِّر الأذكار مرةً بعد الأخرى حتى تخرق الحجب بينك وبين اللّه. فلا تزال تخترق الحجب، وتسقط الغشاوة عن عينيك وبصيرتك حتى تسمع الجواب. وفي هذه اللحظات يتصل القلب بينبوع النور، وفيض القدرة، بارئ الخلائق أجمعين. فتتصل بالحبيب الذي يحبك. فرحمة اللّه تعالى قد سبقت غضبه، وقد خلقك ليرحمك، فهو يتوب عليك، ويدعوك إلى التوبة المرة بعد الأخرى، وقد قال ربنا عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2].

ترى؛ ماذا تريد أيها الإنسان؟ هل وجدت ربك مقصراً في حقك حتى تبحث عن غيره؟ ومتى قطع عنك إحسانه لكي تفتش عن غيره؟ ومتى هجرك حتى تهجره، وقد روي عن رسول اللّه ﷺ أنه قال: «قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ مِنِّيْ شِبْراً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعاً، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّيْ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعاً»[3]؟

وما دمت تعرف أنه يحبك ويرحمك إلى هذا الحد، فلماذا

---

(١) التحفة السنية، السيد عبد الله الجزائري، ص١٤٩.

(٢) سورة التحريم، آية ٨.

(٣) مسند أحمد، الشيخ أحمد بن حنبل، ج٣، ص١٢٧.

تبحث عن غيره؟!

ومن هنا فإن العارفين حينما يجدونه، والمؤمنون الموقنون إذا وصلوا إليه، لا يبحثون عنه بدلاً، ولا ينصرفون إلى غيره، بل يتوجهون إليه، ويستقبلون بوجوههم رحمته كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وجاء في آية قرآنية أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

وفي الآخرة يُحدِّثنا ربنا سبحانه وتعالى عن هؤلاء قائلاً: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

وإني لا أعلم شراباً أصفى وأفضل وأزكى من شراب المحبة والحب، وألذ من كأس الأنس والمودة في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولا أعلم عزةً وفخراً وعظمةً أكثر من أن يجلس الإنسان بين يدي رب العالمين، فيعرف أن حبيبَه، ونجيَّه، وأنيسَه.. إنما هو اللّه لا غيره.

كل شيء زائل إلا وجهه

إن كل شيء لابد أن يزول عنك أو تزول عنه بين عشية وضحاها، فإذا بالنعم الهنية، والأصحاب والأحباب والأهل

(١) سورة الأنعام، آية ٧٩.
(٢) سورة الأنعام، آية ١٦٢.

والأقارب يسلمونك للتراب ويتركونك ثم يتذكرونك لأيام لينسوك، فكم تمرّ في تجوالك على قبور مضت عليها مئات وألوف السنين، فمن يذكرهم؟ وأنت الآخر سوف تصبح نَسْياً منسيًّا بعد بضعة أعوام فيضيع اسمك، ويتلاشى جسدك!

ومع كل ذلك يبقى الواحد الأحد الذي لا يترك عبده، وهو الذي يملك الحياة والموت، ويملك ما بعد الموت، فَلِمَ لا تُوثِّق صلتك به؟

إنه فاطر السماوات والأرض، وإنه وليُّنا في الدنيا والآخرة. وقد ذكَّرنا الله تعالى بهذه الحقائق بشكل متواصل رحمة بنا وهو غني عنا، وتجلّى لنا في كتابه الكريم، إلّا أن العيون والبصائر المريضة، والقلوب المحجوبة لا تبصره، سبحانه وتعالى.

لاحظ -مثلاً- الآية الكريمة التي تقول: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1]. فمن هو فالق الإصباح، وهل رأيت الصبح عندما ينفلق من ضمير الليل، فمن الذي فلقه، أليس هو الله الذي جعل الليل سكناً ونَشَرَ لواءه لترتاح في ظله، وجعل الشمس والقمر حسباناً؟

إن كل شيء يسير على نظام دقيق، وهذا هو تقدير العزيز العليم، فهو ينظم حركة الشمس والقمر، بحيث لا يحيدان عن

(١) سورة الأنعام، آية ٩٥-٩٦.

مسير تهما قيد أنملة. وفي موضع آخر يقول ربنا سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1]. أما أولئك الجهلة الذين حجبهم الجهل عن رؤية الحقائق فإنهم لن يتمكنوا من رؤية الله وآياته في الكون، فهم لا يستفيدون من العبر والآيات.

وهكذا فإن الناس بحاجة إلى درجة أسمى من العلم، وهي درجة الفقه؛ لكي يتفهموا بعض الآيات القرآنية تفهُّماً عميقاً، كقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾[2]. فإذا بالأرض تهتز، والأودية تسيل أنهاراً، ولكن الهدف ليس الجمال وحده، بل المنفعة أيضاً، كما يقول ربنا سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾.

وهكذا يأتي الفقه بعد العلم، والإيمان بعد الفقه، وهو أعلى درجات المعرفة. أفليس من الخزي والعار على الإنسان أن يترك ربَّه رغم كل ذلك التجلي، فيتخذ من دونه شركاء، أَوَليس هؤلاء الشركاء مخلوقين مثلك أيها الإنسان؟

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3].

---

(1) سورة الأنعام، آية ٩٧.

(2) سورة الأنعام، آية ٩٩.

(3) سورة الأنعام، آية ١٠٠.

محور الشخصية المؤمنة

وهنا تأتي الحقيقة الخالدة؛ فلا تسبيح بلا إيمان. فالإيمان هو محور الإنسان. ومعرفة اللّه سبحانه، والتفقه في آياته، هما محور التكوين للشخصية المؤمنة التي تتحدى الشركاء. فالإنسان لا يثبت إيمانه، ولا يستطيع إقامة الحجة أمام نفسه بوصوله إلى مستوى الإيمان إلّا عند تحدي الشركاء، أما إذا كنت تؤمن باللّه وتؤمن بالطاغوت في الوقت نفسه فإن هذا ليس إيماناً حقًّا. فالإيمان لا يكون إلّا مع الجهاد والرفض والتحدي، أما من يخدع نفسه فليعلم أن خداع الذات هو أعدى أعداء المرء.

إن الذي لا يُناهض حكومات الجور، ويتبع أوامراها وتعاليمها، لابد أن يشك في إيمانه، لأنه لا يجتمع في قلب واحد إيمان باللّه وإيمان بالطواغيت. فعد إلى نفسك واحذر من الشيطان في كل خطوة تخطوها، فإنه مستعد لأن يهجم على الإنسان بكل أسلحته الفتّاكة. فتحدَّ كل المؤامرات والعقبات التي تعترضك وفي مقدمتها خداع الذات. فإذا وسوس لك الشيطان محاولاً أن يخدعك، فارجع إلى القرآن واسأل أهل الذكر من العارفين بالأمر. وإذا التبست الأمور عليك فتوسل إلى اللّه تعالى واطلب منه الهداية كي لا تخدع نفسك.

كيف نتجاوز عقبات مقاومة الطاغوت؟

والسؤال المطروح هنا هو كيف يتم تجاوز تلك العقبات؟

هناك عقبة كأداء تعترض سبيلنا إذا ما أردنا مقاومة

الطاغوت، ألا وهي ضعف العزيمة وخور الإرادة.. فيقوم الإنسان بإيحاءٍ تبريريٍّ لذاته بأن الحكم على هذا الطاغوت بأنه طاغوت غير صحيح، فما يدرينا أن هؤلاء طغاة، فنتمسك بذلك بأي عذر تبريري للتهرب من الصعاب والمسؤوليات لنسلم من الأذى خوفاً على أنفسنا وعيالنا وأموالنا، بل وننجو بأنفسنا عند أول فرصة تسنح لنا للهروب من الصعاب، حتى وإن كانت من الطاغوت نفسه. فكثيراً ما يُغري هذا الطاغوت معارضيه بالأموال أو إعطائهم بعض الامتيازات في مقابل سكوتهم أو تعاونهم معه، فيسقط البعض مُتَّبعاً إغراء الشيطان وغوايته، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1]، نتيجة ضعف العزيمة، وسيطرة الكسل على الإنسان حتى يُقْعِدُه عن الحق فَيُضْعِفُه، كما جاء في الحديث الشريف، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: «قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: وَلِلْكَسْلَانِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يَتَوَانَى حَتَّى يُفَرِّطَ، وَيُفَرِّطُ حَتَّى يُضَيِّعَ، وَيُضَيِّعُ حَتَّى يَأْثَمَ»[2].

الآثار السلبية لحالة الكسل والضجر

وهنا لابد أن نُوضِّح بعض النتائج التي تتمخض عن الكسل:

١- من علامات الكسل الضجر، والضجر كارثة تؤدي بالإنسان إلى الدمار، حيث يهلك نفسه بلجوئه إلى الموبقات. فإن

(١) سورة النساء، آية ١٢٠.

(٢) الخصال، الشيخ الصدوق، ص١٢١.

ضجرت يوماً فستجد نفسك مدفوعاً إلى أن تستمع إلى الأغاني -مثلاً- فترتمي بذلك في أحضان الشيطان، أو أن تحضر في مجالس الغيبة التي هي أشد حرمة من سماع الأغاني، لأن فيها تَفَرُّق المسلمين بعضهم عن بعض.

وكذلك لا تحاول أن تقضي على سَأَمِكَ بمعاقرة الخمور -والعياذ بالله- أو القمار أو المخدرات أو ارتياد مراكز اللهو.. فهذه الأمور سبب في استمرار الضجر، بل عليك اللجوء إلى الله والإكثار من ذكره واستغفاره والتشاغل بأي عمل مثمر مفيد.

٢- إن الذي يكسل لا يستطيع أن يصل إلى أهدافه عبر الطرق السليمة، بل يلجأ إلى الطرق الملتوية. فالطالب النشيط يجتاز الامتحانات بنجاح لأنه درس جيداً، أما الطالب الكسول فإنه يبحث عن طرق الغش والتزوير، فإن أخفق في دراسته اضطر إلى أن يعمل في مجالات غير شريفة.

أما الإنسان العامل النشيط فإنه لا يحتاج إلى أن يلوث نفسه في تلك المجالات، بل تراه يعمل في أشرف المهن وأسماها.

٣- إن الكسول تراه دوماً يفتش عن الأفكار التبريرية الحريرية لينام عليها، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1]. لأن الفاسق كسول يفتش عن الأفكار المخدرة بدلاً من الأفكار الرسالية. وهكذا فإن مقاومة الطاغوت لا تتأتى إلّا من

(١) سورة المائدة، آية ١٠٨.

خلال التقرب إلى اللّٰه تعالى، والازدياد حبًّا له سبحانه، وتحطيم حجاب الكسل، والدخول في رحاب العمل الصالح بِهِمَّةٍ ونشاط وتحرك وحيوية، وعندئذ نسأل اللّٰه تعالى أن يوفقنا إلى الأمور التالية:

ألف: الوصول إلى قمة المجد المتمثلة في حبه والاتصال به.

باء: تجسيد هذا الحب عمليًّا عبر البراءة من أعدائه، وتحدي الشركاء من دونه، لِيَخْلُصَ ولاؤنا له وحده لا شريك له.

جيم: بذل الجهد بحيوية ونشاط على طريق الجهاد في سبيل اللّٰه.

ومن خلال تجسيد هذه الأمور في أنفسنا سوف نتحوّل بالتأكيد إلى عناصر ناشطة وفاعلة تخدم الرسالة الإلهية، ملقية جانباً جميع الحجب والحواجز أيًّا كانت.



السبيل إلى الإيمان

يعيش الإنسان في ظلمات نفسه، ولا يجزيه اللَّه إيجابيًّا إلَّا إذا أسلم نفسه للَّه وزكَّاها، وعكف على تنمية مواهبه الخَيِّرة. فالعين هي نعمة اللَّه على الإنسان، بها يبصر طريقه، وكذلك الأذن التي يستمع بها إلى ما يجري في الحياة، ولكن النعمة الكبرى والعظيمة هي القلب الذي يبقى مُغلقاً وعليك أنت أنْ تفتح رموزه وأبوابه ليستقبل رحمة اللَّه.

فالقلب هو مستودع الخير، ولكل قلب أذنان يَنْفُثُ في أحدهما الشيطان سمومه، وتوحي الملائكة في الأذن الأخرى الهدى والبصائر، والإنسان مختار في أن يستمع بهذه الأذن أو تلك فهذا شأنه، حتى أن اللَّه تعالى جعل مشيئته تابعة لمشيئتك في هذه القضية، فلك الاستماع بأذنك اليسرى حيث الشياطين تخدك وتقودك إلى الضلالة، أو بأذنك اليمنى حيث الملائكة تهديك إلى الحق.

فأنت لا تحمل في تصرفاتك أحداً المسؤولية، إنما أنت المسؤول أولاً وأخيراً، ولأنك المسؤول فلك الجزاء، وعليك العقاب.

وقد ملأ اللّه تعالى هذا الكون من حولنا وفي أنفسنا بآيات لا تُحصى، وأعطانا القدرة على اكتشافها والاعتبار بها والاهتداء من خلالها إلى خالقنا؛ ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، اعتباراً من النملة الصغيرة وهي تدب على الأرض، وتبحث عن طعامها، والخلايا المتناهية في الدقة التي عجز العلم الحديث بكل ما أُوتي من أجهزة دقيقة عن أن يكتشف سرها، إلى هذا الجسم الكبير وآفاق النفس.

حقيقة التوحيد

ترى كم واحداً منا عرف اللّه ووحّده ولم يُشرك به أحداً، وما الذي جعل الكثير منا لا يؤمنون.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1]. هذه هي مشكلتنا، وهذه هي العقبة التي لابد أن نتجاوزها من خلال تجميع قوانا الروحية والعقلية والنفسية والجسمية لكي نرى اللّه سبحانه حق الرؤية، ونعتبر بآياته. وللأسف فإن الكثير يمتلك العين ولكنه يفتقر إلى البصيرة، وفي هذا المجال يروي لنا التأريخ أن عقيلاً دخل على معاوية وهو مكفوف البصر، فقال له معاوية: كيف رأيت عليًّا وأصحابه؟

قال: كأنه رسول اللّه ﷺ وأصحابه.

(١) سورة الفرقان، آية ٤٣.

قال: فأنا؟

قال: فكأنك أبو سفيان وأصحابه.

فقال له: أنت ضرير.

قال: هو أولى ألّا أراك.

قال: أنتم تصابون في أبصاركم.

قال: وأنتم تصابون في بصائركم[1].

وهكذا فإن الإنسان قد لا يُصاب في بصره، وقد تعمى بصيرته. فالكثير منا يملك البصر ولكنه لا يملك البصيرة، يملك الأذن ولكنه لا يملك السمع، ويملك اليدين والرجلين ولكنه لا يملك السعي، ويتمتع بالوسيلة ولكنه لا يصل إلى الهدف.

فلنتأمل في قول الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

فما الفرق بين الميت والحي، الميت الذي لا يُكَيِّف نفسه مع ما حوله. فالميت ينفصل عن الوسط الاجتماعي، والوسط الطبيعي. فالإنسان الذي لا يملك الإيمان والبصيرة إنما هو ميت، لأنه لا يستطيع تحديد مواقفه إلّا من خلال الإيمان.

(١) الصراط المستقيم، الشيخ علي بن يونس العاملي، ج٣، ص٤٩.
(٢) سورة الأنعام، آية ١٢٢.

وفي قول اللّه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[1].

ما هو المعنى الحقيقي للإسلام؟

لابد أنَّ أكثرنا قد قرأ الحديث الشريف المروي عن إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث قال: «**لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي. الْإِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصْدِيقُ، وَالتَّصْدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ**».[2] أي إن أبواب قلبه وصدره تتفتح لكيلا يعيش في سجن ذاته وينطلق نحو الإسلام؛ أي التسليم للّه في صلاته ونسكه ومحياه ومماته، فإذا سلَّم نفسه انشرحت نفسه وصدره، وخرج عن ذاته، ودخل في النور، وإلّا كان كمن يقول عنه ربنا سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[3]. وهكذا ستحيط به الظلمات.

ولابد للإنسان أن يسعى لأن يخرج من هذه الظلمات، فلقد خلقه اللّه في أحسن تقويم. ولكن الإنسان بسبب جهله، وظلمه لنفسه ولمجتمعه وتربيته الفاسدة يسقط في أسفل السافلين، كما قال اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[4]؛ أي إنه يهبط إلى

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٥.
(٢) نهج البلاغة، حكمة رقم ١٢٥.
(٣) سورة الأنعام، آية ١٢٢.
(٤) سورة التين، آية ٥.

الحضيض، وقد استثنى الله تعالى من ذلك المؤمنين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾(1).

وكل إنسان يولد على الفطرة، ولكن هذه الفطرة لا تبقى مع الإنسان على حالتها الأولى، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، ثم بعد ذلك لابد أن يسلك طريق العودة إلى الله تعالى. ولذلك فإن المؤمنين والعاملين للصالحات هم الأقلون. فالإنسان تابع للمجتمع، والمجتمع له عادات من الصعب على الفرد الإقلاع عنها، بل هو يبرر عاداته هذه، فإذا كان الإنسان متعوداً على أن ينام في اليوم عشر ساعات، ذهب وفتش في الكتب عن الأدلة العلمية والفقهية والتاريخية التي تبرر له النوم عشر ساعات.

إن الخير عادة، والشر أيضاً عادة، ولكن أغلب الناس متعودون على الكسل وحب الراحة والنساء والرئاسة.. ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(2)، أي أن الشيطان يبرر للإنسان أعماله المرة بعد الأخرى.

عقبتان في الطريق

السبب الآخر لفساد الإنسان يتمثل في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ الشياطين(3).

---

(1) سورة التين، آية ٦.

(2) سورة الأنعام، آية ١٢٢.

(3) سورة الأنعام، آية ١٢٣.

وهـؤلاء المجرمـون الأكابـر يتمثلـون الآن فـي الحـكام الظلمة، والصحفيـين المأجوريـن، وعلمـاء البـلاط. إنهـم يشـكلون ثلاثيّاً يقوم بالمكر؛ المكر على الجماهير، وإفساد ضميرهم.

هـذه الآيـة تعنـي أن كل إنسـان لابـد أن يتحـدى عقبتيـن أساسيتين فـي حياته؛ العقبة الأولـى: هي عقبة الظلمـات الذاتية. والثانيـة: عقبة أكابـر المجرمين الذين يُصرِّح القـرآن أنهم عديموا الإحساس والشعور: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

إن المشـكلة التـي يُعانـي منها الإنسـان هي أنـه لا يبادر إلى الاعتبار بالآيات الواضحة، بل يطالب بآيات أوضح.

ومـن أجـل إيضاح ذلـك نقول: إن الإنسـان قد يسـتطيع أن يعيش على الخبز، ولكن هناك من الناس من لا تستطيع أجسامهم أن تعيش علـى الخبـز فقط، بـل يُـدوّن بالإضافة إلـى ذلك بعض الفيتامينـات والمقويـات؛ بـل إن البعـض يطالـب بأكثـر من ذلك وعلى الدوام دون أن يشكر اللّه تعالى.

وللأسف فإن بعض الناس عيونهم مُغمضة، وأسماعهم فيها وقـر، وقلوبهم طبـع اللّه عليهـا، يُصبح عليه الصبـاح وهو متأفف متضجـر قد ضاقت عليـه الدنيا بما رحبت، غافـلاً عن الطبيعة من حولـه كيف تبتسـم لـه وترحب به، وناسـياً أنعـم اللّـه التي ملأت السماوات والأرض، ورحمته الواسعة.

---

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٣.

والبعض الآخر من ضعاف الإيمان يطالبون -من أجل أن يقوى إيمانهم- أن ينزل عليهم جبرائيل ويأتيهم بقرآن! أو أن يأتي إليهم فلان ليُلقي عليهم خطاباً إيمانيًا.. كل ذلك ليس بالضروري؛ فيكفيك أن روحك تفارق جسدك عندما تخلد إلى النوم، وأن اللّه أعادها إليك عند اليقظة؛ فعليك أن تحمد اللّه على إعادة الحياة إليك، ومنحك المهلة. فهل تعرف أن الإنسان الميت كم يرغب في أن يعود إلى الدنيا ولو للحظة واحدة؟ فالمفروض بنا أن نعتبر بهذا الإنسان، وأن نفرض أنفسنا مكانه، وأننا قد طلبنا من اللّه تعالى أن يعيدنا إلى الحياة فأعادنا.

فالحياة -إذن- مليئة بالعبر، وهذه العبر تكفينا لتقويم سلوكنا. فلننظر إلى الطبيعة من حولنا، ولنجعل قلوبنا وأحاسيسنا رقيقة، ولا نكن كالكفار الذين يصفهم اللّه تعالى بقساوة القلوب، وتبلُّد الأحاسيس رغم رؤيتهم للآيات، كما يقول سبحانه تعالى عنهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾[1].

التدبر في الآيات القرآنية

ولنتدبر أيضاً آيات القرآن الكريم، وأن نحذر من أن نتخذه مهجوراً. فمن الحرام علينا أن تمرَّ علينا الأيام ولا نفتح كتاب ربنا لنعتبر به، ولا نتدارسه. فهذا تعامل خاطئ مع القرآن ومع الرسول ﷺ، الذي يوصينا بالقرآن قائلاً: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِتْرَتِيْ أَهْلَ بَيْتِي»[1].

وللأسف فإن آيات القرآن تتلى علينا ولكننا لا نستمع إليها رغم أن القرآن هو واسطة الخير بيننا وبين اللّه تعالى، وهو شفيعنا يوم القيامة. ولكن مشكلة الإنسان أنه لا يستطيع أن يعتبر، لأن في قلبه حجاباً، وفي هذا المعنى جاء في الدعاء الشريف للإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ، وَأَنَّكَ لَا تَحْجُبُ عَنْ خَلْقِكَ وَلَكِنْ تَحْجُبُهُمُ الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ دُونَكَ»[2].

فالأعمال -إذن- هي التي حجبتنا، فإذا رأيت قلبك لا يخشع عند استماعك إلى القرآن، ولا يخشع عند الصلاة والدعاء، فاعلم أنك قد اقترفت أعمالاً سيئة لم يغفرها اللّه تعالى، وأن هذه الأعمال قد صنعت حجباً حجبتك عن خالقك؛ فاستغفر اللّه.

آية معرفة النفس

ثم يضيف السياق القرآني المبارك في سورة الأنعام قائلاً: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾[3]. فهذه آية من آيات معرفة

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٥٠٠.
(٢) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٥٨٣.
(٣) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

النفس، والآية التالية يشير إليها ربنا سبحانه في قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[1]. فالمؤمن منشرح القلب، ولا يجد في نفسه شحًّا. فكلمة العفو سنته، والإحسان إلى الناس، وخدمة المجتمع هدفه.. فهو يعيش مرتاح البال دائماً، أما الإنسان الشحيح فتراه مقبوض اليد، منغلقاً معقداً، كإنما يصعد في السماء. ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[2]. فقد أثبت العلم أن مادة الأوكسجين تقل كلما صعدنا إلى السماء، وبذلك نشعر بالضيق والاختناق.

وعليه؛ فلنحاول أن نعمل على تزكية أنفسنا، فهناك حجب قد نستطيع أن نخرقها بالتوبة إلى اللّه، ولكن أنفسنا إذا كانت منطوية على الحسد وحب الذات والرئاسة والراحة.. فإنها لا تستطيع أن تستقبل رضوان اللّه.

فَلنُزَكِّ أنفسنا حتى تكون كالينبوع الصافي الذي ننظر من خلاله. فالمؤمن ينظر بنور اللّه، واللّه يعطيك هذا النور، ويهبك الصراط المستقيم الذي هو الطريق الصحيح إلى الأهداف والتطلعات الحقيقية.

وهكذا فإن كل شيء من حولنا يدعونا إلى الآيات المكنونة في السماوات والأرض وفي أنفسنا، ولكننا محجوبون عن هذه

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٥.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٢٥.

الآيات بأعمالنا السيئة، وبالصفات الرذيلة التي في أنفسنا. فعلينا أن نُصلح أنفسنا هذه، وأن نستغفر اللّٰه تعالى من سيئات أعمالنا، لنتصل بشكل مباشر بآياته، ويتحول هذا الكون من حولنا إلى مركز إشعاع للنور.



القيم المثلى

كما أن جسد الإنسان يتألف من مجموعة مختلفة من المواد، فكذلك روحه ونفسه تتكونان من طائفة واسعة من القيم.. كما أن المواد المفيدة والمغذية تجعل جسد الإنسان سويًّا ومُعافى، كذلك القيم، فحينما تكون سليمة سوية فإن نتائجها ستكون إيجابية على صعيد بناء شخصية الإنسان ونفسه وثقافته.

أما إذا كانت قيم الإنسان زائفة فإن هذا الزيف سينعكس على شخصيته وشاكلة روحه. وبالطبع فإن هناك فارقاً بين الجسد السوي والروح السوية؛ فإذا كان هذا الجسد سويًّا ظهرت ملامح استوائه وعافيته جلية؛ فإذا وقفت أمام المرآة استطعت من خلال نظرة واحدة أن تكتشف أنك مُعافى أو مُصاب بمرض.

ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى الروح، فأمراضها لا تظهر إلّا عندما يواجه الإنسان المواقف الصعبة في حياته. وللأسف فإن هناك الكثير من الناس يزعمون أن نفوسهم سوية، وقلوبهم طاهرة

ونقية، ولكن سيئاتهم وعيوبهم سرعان ما تظهر عندما يتعرضون للبلاء والفتنة.

الابتلاء غاية خلق الإنسان

ولذلك فإن اللّه تعالى إنما خلق الإنسان ليعرف -وهو يعرف مسبقاً- هل سيستقيم على الطريقة أم أنه سيتنكب عنها. ففلسفة وحكمة خلق الإنسان في هذه الدنيا تتلخصان في أن يتعرض للامتحان والابتلاء في الدنيا، ليعرف مدى مقاومته للانحرافات المختلفة.

وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾[1]. وقد استُخدمت في هذه الآية كلمة (الاستقامة)، وفي سورة الحمد استُخدمت هذه الكلمة أيضاً: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[2].

وهنا قد يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي: ما الفرق بين كلمة (القويم) وكلمة (المستقيم)، ولماذا هذه الزيادة في الحروف (إضافة حرف الألف والسين والتاء) بحيث يصبح المصدر من باب الاستفعال؟

يقول النحاة في هذا المجال: أن صيغة (الاستفعال) تعني

---

(١) سورة فصلت، آية ٣٠.

(٢) سورة الفاتحة، آية ٦.

طلب الفعل. فالاستعطاف يعني طلب العفو، والاستكتاب يعني طلب الكتابة، وهكذا الحال بالنسبة إلى الاستقامة فإنها تعني طلب الطريق القويم.

وعلى هذا فإن كلمة (استقاموا) التي جاءت في الآية تعني أنهم طلبوا الطريق القويم. وهذا يعني أن الاستقامة ترتبط بسعي الإنسان وإرادته وحركته ونشاطه.. فهو الذي يجب أن يسعى وراءها ليحصل عليها.

فالاستقامة -إذن- من الإنسان، وإذا ما استمر هذا الإنسان في السير على الطريق القويم فحينئذ ستتنزل عليه الملائكة. وهذا يعني كما يبدو لي أن الناس يُعْطَون من قبل اللّه تعالى أقداراً متساوية من العقل والهدى والتوفيق.. فنحن متساوون بادئ ذي بدء في مدى عطاء اللّه لنا من العقل والهدى والتوفيق، ثم نختلف بعد ذلك في مدى الاستفادة من هذه المواهب. فالذين يستغلونها الاستغلال الصحيح سوف يستقيمون على الطريق، في حين أن البعض الآخر يهملها، فتكون نتيجة هذا الإهمال أن يُضلهم اللّه تعالى، ويبعدهم عن رحمته، ويُقيِّض لهم قرناء من الشياطين. وفي المقابل نرى أن المستقيمين على الطريق تتنزل عليهم الملائكة.

فالاختيار يكون أولاً من قبل الإنسان، وبعد ذلك يأتي دور العون والتأييد الإلهيين، أو الخذلان، وهذا هو حال الإنسان في الحياة الدنيا.

القيم تحدد عاقبة الإنسان

وفي هذا المجال قد يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي: نرى بعض الناس يبدؤون حياتهم الإيمانية بداية طيبة، ولكن عاقبتهم تنتهي إلى السوء فينحدرون إلى أسفل سافلين، ترى لماذا تؤول حياتهم إلى هذه النهاية السيئة؟ وفي المقابل نرى البعض الآخر على العكس من ذلك تماماً، فما هي المعادلة التي تحكم مثل هذه الحالات؟

وجواباً عن ذلك أقول: إن هذه المعادلة هي معادلة القيم في حياة الإنسان. فالقيم هي التي تحدد اتجاهه، وهي التي تدخل في تركيب نفسه، فتجعله يختار طريقه، وتؤثر على مسيرته في المستقبل.

وتعتبر لحظة الاختيار، والتردد بين الحق والباطل من اللحظات الصعبة والحرجة، فالإنسان في هذه اللحظات لا يمتلك مزيداً من الوقت للتفكير، لأنه في لحظة الاختيار لا تسنح له مثل هذه الفرصة، فهي لحظات سريعة وخاطفة يتردد فيها الإنسان بين الجنة والنار. ترى كيف يختار الإنسان طريقه، وما الذي يجعله يختار الجنة على النار، والاستقامة على الانحراف؟ وما الذي يدفعه إلى القيام بعكس ذلك؟

إن الذي يسهم ويتدخل في عملية الاختيار إنما هو تركيبة نفس الإنسان، والمواد التي صِيغت منها شخصيته؛ فهل كان يتجه خلال حياته إلى القيم السليمة أم إلى القيم الفاسدة، وكيف كانت قيمه في الحياة؟.

إن هـذه القيم تؤثـر خلال لحظـة اختياره؛ فإذا كانت نفسـه ممتلئـة بالحقـد، والحسـد، والأغـلال، والشـك، والريـب.. فإنه سيختار النار دون شك، وسيكون من أصحاب النار. وعلى العكس من ذلك إذا كانت نفسـه مفعمـة بالإيمان وروح التضحية والفداء، وحب اللّٰه والخير للآخرين، والتوكل، والتواضع، واليقين.

إن الإنسـان يتعرض لامتحانات صعبـة للغاية، وكلما تصدى هذا الإنسـان لمهام ومسـؤوليات أعظـم كَثَّف الشـيطان من توجيه جنوده إليه، فتنزل عليه الفتن كقطع الليـل المظلم، فتحجب فكره، وتدعه مُتحيِّراً، وفي هذه اللحظات لا تنفعه إلَّا قيمه، وطهارة قلبه.

كيف ننمي القيم السليمة في أنفسنا؟

وقد نتساءل: كيف نُنَمِّي القيم السليمة في أنفسنا؟

إن القيـم الداخلـة فـي تركيبـة الإنسـان الداخلية قـد تكون سليمة، وقد تكون فاسدة، والسبب في ذلك أن الدنيا هي دار تطبيق القوانيـن والسـنن الطبيعية. فلا يمكن لأي إنسان أن يصبح عالماً في ليلة وضحاها، وحتى النبوة تحمل بعض الإرهاصات؛ صحيح أنهـا جَعْل إلهي، وابتداء من اللّٰه تعالى ولكنها بحاجة مع ذلك إلى خلفيات وإرهاصات. فاللّٰه تعالى يختار من الناس الرجل الصالح لحمل رسالته ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1].

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٤.

فكما أنك لا يمكن أن تصبح عالماً أو غنيًا مرة واحدة، وإنما بالتدريج، فكذلك الحال بالنسبة إلى الأمور الروحية. فالقيم الصالحة تنمو لدى الإنسان شيئاً فشيئاً. فنحن إذا بدأنا حياتنا انطلاقاً من حب الآخرين، والتعاون، والاندماج معهم.. فإن هذه القيم الصالحة سوف تكبر معنا كلما تقدمنا في العمر. وعلى العكس من ذلك تنسحب من نفوسنا القيم الصالحة لتحلّ محلها القيم الفاسدة.

الشيطان يحاول إفساد القيم

والشيطان يحاول من خلال أساليب ذكية أن يحرف الإنسان من خلال تغيير نفسه وقيمه، وعندئذ سوف لا يعود بإمكان هذا الإنسان مواجهة الفساد والصمود أمامه.

ويتوجه الشيطان إلى بعض الناس فيُزيل مناعتهم الروحية من خلال إزالة تقواهم.. ومساعي الشيطان هذه تنصب بالخصوص على ذوي المسؤوليات، فإن كانت لديهم المناعة لمقاومة إغراءات الشيطان، فقد أفادتهم قيمهم الصالحة، وإلّا سقطوا في مستنقع الشيطان.

وهكذا لابد أن نعرف كيف نُنَمّي القيم في أنفسنا، ومن القيم المهمة جدًّا قيمة النشاط؛ أي أن يُفضِّل الإنسان الحركة والنشاط على الكسل والتواني والاسترخاء.. وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ!»[1]. فقد

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٤١.

تفكِّر أن تعمل وتدرس غداً، ولكن عندما يحل الصباح تجد أن من الصعب عليك النهوض، فتُفضِّل النوم على اليقظة والعمل والدراسة، ويستمر بك الحال هكذا لتجد نفسك قد خسرت طموحاتك الكبيرة الواسعة.

وعلى هذا لابد من النشاط والحركة، ونبذ الكسل جانباً، وعدم الاستسلام للوساوس الشيطانية التي تدفعنا إلى التكاسل، فهذا الاستسلام إنما هو تبرير شيطاني.

لندع التعب جانباً

إن نزول الملائكة على المؤمنين المستقيمين يعني عدم الخوف والحزن.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾[1].

وعدم الحزن هنا يعني عدم التعب، ذلك لأن الحزن يُولِّد التعب. فعندما أُقدِّم بعض التضحيات، وأترك أهلي ووطني نتيجة لذلك، فإن التفكير في مثل هذه الأمور سيسبب حالة الحزن للإنسان، وحالة الحزن ستسبب بدورها التعب والإرهاق النفسيين اللذين يؤديان إلى التعب الجسدي.

في مثل هذه الحالات علينا أن نأخذ بالحسبان أننا نعمل ونُضَحِّي في سبيل اللّه، ومادام الأمر كذلك فإنَّ أجرنا مضمون،

(١) سورة فصلت، آية ٣٠.

وتعبنا لا يذهب سدى. والإنسان الرسالي لا يمكن أن يحس بالتعب حتى وإن بلغ التسعين من عمره، فهو يبقى حيويَّ الروح ونشيطاً، وهذه هي الصورة الحقيقية للإنسان المؤمن.

وعلى هذا علينا ألَّا ندع الشيطان يزرع في أنفسنا القيم الفاسدة مهما كانت صغيرة، لأنها ستنمو وتتضخم بمرور الزمن. فإذا خُيِّرنا بين راحتنا والعمل في سبيل رسالتنا، فعلينا أن نختار رسالتنا. وإذا خُيِّرنا بين أنفسنا وبين إخواننا، فعلينا أن نختار مصالح إخواننا، وألَّا ندع ذرة من الحقد والحسد وحب الرئاسة والشهرة في قلوبنا، لأن هذه الذرة ستتحول إلى ذنب كبير.

فلابد من الاستقامة على الطريق، فمن خلال هذه الاستقامة سيدخلنا اللَّه في عداد المؤمنين الصادقين، وقد نُواجه في هذا الطريق بعض الضعف بسبب ضغوط معينة، ولكن اللَّه تعالى سيرفعه عنا ويُحَصِّنُنا من مكارهه، ويُنزل علينا الملائكة،ويمنحنا بذلك العزة والمنعة.

آفاق التوكل

من الكلمات والمعاني التي جاء التأكيد عليها في القرآن الكريم، والإشارة إلى أهميتها وعظمتها، والتي طالما نلهج بها ونرددها على ألسنتنا دون التوجه والالتفاف إلى مغزاها ومعناها العميق وآثارها النفسية والاجتماعية.. من هذه الكلمات والمعاني كلمة «التوكل»، التي يُراد بها التوكل على الله تعالى الذي هو مفتاح كل باب موصد، وسُلَّم الإنسان الذي يعرج به نحو عالم المدنية والرقي والحضارة النزيهة.

التوكل موسوعة جامعة

صحيح أن التوكل كلمة صغيرة ولكنها في الحقيقة عالم كبير، وموسوعة علمية مترامية في أطرافها وآفاقها، وعند التوغل في أعماق معانيها، وسبر أغوارها سوف نلمس تلك الفوائد العظيمة، والمكاسب الهائلة التي حملتها هذه الكلمة المباركة، المتضمنة للمعاني الزاخرة بالعطاء.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قال: «جَاءَ جَبْرَئِيلُ فَقَالَ: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِهَدِيَّةٍ، لَمْ يُعْطِهَا أَحداً قَبْلَكَ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا هِيَ؟

قَالَ: الصَّبْرُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الرِّضَا وَأَحْسَنُ مِنْهُ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الزُّهْدُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: الْإِخْلَاصُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ.

قَالَ: وَمَا هُوَ.

قَالَ: الْيَقِينُ وَأَحْسَنُ مِنْهُ.

قُلْتُ: وَمَا هُوَ يَا جَبْرَئِيلُ؟

قَالَ: إِنَّ مَدْرَجَةَ ذَلِكَ التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَقُلْتُ: وَمَا التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ؟

قَالَ: الْعِلْمُ بِأَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ، وَاسْتِعْمَالُ الْيَأْسِ مِنَ الْخَلْقِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ كَذَلِكَ، لَا يَعْمَلُ

لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ وَلَمْ يَرْجُ وَلَمْ يَخَفْ سِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَطْمَعْ فِي أَحَدٍ سِوَى اللَّهِ. فَهَذَا هُوَ التَّوَكُّلُ»[1].

فلا عجب -إذن- أن يتضمن (التوكل) موسوعة فلسفية كاملة وجامعة، وذلك لأن هذه الصفة تشتمل على ثلاثة أبعاد رئيسية:

١- المعنويات العالية

الإنسان بحاجة إلى شحن ذاته بالثقة، والمعنوية العالية، والشجاعة لتجاوز حالات الخوف وتحديها.

فالخوف حالة متأصلة وغريزة فطرية في الإنسان، فقد نشأت عنده طبيعة الخوف مذ خُلِقَ ومكث في الأرض، فبات يخشى الطبيعة ومظاهرها وغرائبها، وراح يهابها ويحذر منها. وعند مطالعة التأريخ الغابر نجد مصداق هذا الرأي، فقد كان الناس يعبدون ويُقَدِّسون كل شيء يستشعرون منه الرهبة والهيبة؛ فالمصريون القدماء كانوا يعبدون النيل اتِّقاءً لطغيانه، وكانوا يُقدِّمون له كل عام أجمل فتياتهم قرباناً له.

والعربي -ابن البادية- راح يعبد الصخور والجبال والشجر ويسجد لها خشيةً من سطوتها الطبيعية، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى أن يعبد الحيوانات الصغيرة والحشرات؛ فمنهم من عبد الخنفساء، وآخرون عبدوا الثعابين والفئران وغيرهما، كما وقدَّسوا

---

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١١، ص١٥١.

المظاهر الطبيعية كالبحر والصحراء والرعد والبرق والرياح العاتية والأعاصير.. وصنعوا لكل منها إلهاً يناجونه ويسجدون له، ليتّقوا -بزعمهم- شرور ومخاطر تلك الظواهر الطبيعية. فقد كانوا يتصورون -عند حدوث ظاهرةٍ ما- أن الإله المعنيّ بها قد استشاط غضباً عليهم، وأن من واجبهم أن يُرضوه بالعبادة والسجود، وربما بتقديم الأضحية والقرابين إنْ تطلَّب الأمر ذلك.

وهكذا فإن خوف الإنسان من الطبيعة جعله يعيش في إطار التفكير الضيق. فكان التوكل على اللّه تعالى سبباً لشحن الأنفس بالثقة والشجاعة من خلال رجوعها إلى ربها، واعتمادها عليه، والاستعانة والاستعاذة به؛ هذه الاستعاذة التي هي استحضار لقدرة اللّه تعالى في الذهن، لأن الحضور الذهني عند تلك العظمة الهائلة التي شملت ووسعت كل شيء في الوجود هو الذي يدفع صاحبه إلى تحدي الطبيعة وإزالة جدار الخوف من نفسه.

وللأسف فإن الكثير من الناس ما يزالون يعيشون هاجس الخوف الذي يملأ كيانهم، حتى أن البعض منهم يخشى الظلام، بل ويخاف حتى ظله، والبعض من حالات الخوف تهد صاحبها، وتقضي على البقية الباقية من شجاعته.. فهم ضحايا الأوهام والتصورات والخيالات وأحاديث النفس.

وفي الحقيقة فإن الوهم الذي يعيشونه ويبعث فيهم حالة الخوف والرهبة هو الذي يجعلهم يقولون: إنهم قد رأوا مخلوقات غريبة أو أشباحاً.. ولا علاج لهذه الحالة سوى التوكل على اللّه

تعالى؛ هذا التوكل الذي من شأنه أن يقضي على سطوة الأوهام والخيالات، وبالتالي إزالة طبيعة الخوف وما يترتب عليها.

٢- إزالة وسوسة الشيطان من القلب

يعيش الإنسان بطبيعته هاجس الأوهام الداخلية في النفس، فتراه إلى التشاؤم أكثر منه ميلاً إلى التفاؤل. وهذه الحالة نابعة من طبيعته الضعيفة، فتراه يميل إلى الراحة، ويتجنّب المشاق والصعاب، ويفرّ من المسؤولية، ويلجأ إلى أساليب التبرير.. والتشاؤم الذي يسيطر عليه هو واحد من أساليب التبرير، فهو -مثلاً- يتشاءم من مكان معين، أو حدث ما، أو زمن معين، أو ربما من رقم ما، أو حركة طارئة.. فإذا حلّ -مثلاً- يوم السبت كان يوم نحس فلا عمل ولا بيع ولا شراء ولا زواج فيه.. ولعل اليهود هم مصدر مثل هذه العقائد الخرافية البالية، فهم يتشاءمون كثيراً من يوم السبت فيسبتون فيه ولا يعملون ولا يبيعون، فجاء الإسلام ليدحض مثل هذه الخرافات، حتى ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بُوْرِكَ لِأُمَّتِيْ فِيْ بُكُوْرِهَا، يَوْمَ سَبْتِهَا وَخَمِيْسِهَا»[1].

والقرآن الكريم يشير بدقة إلى هذا الموضوع، فقد جاء في بعض سياقه المبارك ردًّا على زعم المُتطيِّرين والمتشائمين الذين توعدوا الأنبياء والصالحين بالتطيُّر إن هم لم ينتهوا عن دعوتهم قائلين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج٨، ص٢٦١.

طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾[1].

فالتطيُّر والتشاؤم كانا جزأين من كيان هذه الفئة من الناس، وكان الاعتقاد بالمنحوسات متغلغلاً في أعماق نفوسهم. وتوجد هنا حقيقة لابد من الإشارة إليها، وهي أن التفكير في الشيء، وأخذ الصورة عنه، سرعان ما ينعكسان على الواقع. فالذي يعتقد أن أمراً ما هو منحوس ومشؤوم، فإنه سيصبح بالفعل كذلك. والنبي الأكرم محمد ﷺ يقول: «تَفَاءَلُوْا بِالخَيْرِ تَجِدُوْهُ»[2].

فالإنسان الذي يخرج من بيته أو محل عمله وفي نفسه شيء من الهم والغم والتشاؤم، فإنه على الأغلب سيتعرض إلى مكروه يُصيبه، وعند وقوع هذا المكروه ستتعزز عنده العقيدة التشاؤمية وإيمانه بمثل هذه الأوهام التي مَهَّدت لوقوع المكروه. في حين ينبغي للإنسان المؤمن أن يسلك في معتقداته وأفكاره السبل التي رسمها القرآن الكريم، وأن ينظر إلى معالم الحياة وآفاقها ببساطة ووضوح.

والغريب في الأمر أن نجد بعض الناس غارقاً في التشاؤم حتى في رؤى الخير وأحلامه، فهو يبادر إلى تفسير مثل هذه الرؤى تفسيراً تشاؤميًّا، فيزيد بذلك من بؤس وظلام عالمه المتشائم. ومعظم هؤلاء -إن لم نقل جميعهم- هم من ضعفاء

(1) سورة يس، آية ١٨ – ١٩.

(2) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي، ج١٩، ص٧٧.

الإيمـان، وقليلي الثقة باللّه سـبحانه. فهم غافلون عن رحمته التي وسـعت كل شـيء، ولذلك فـإن ديدنهم هو تلبيد سـماء المجتمع بالغيوم والسـحب السـوداء، ولا يتفوهون إلّا بما يبعث الاشمئزاز فـي النفـس، ولا يعرفون التعابيـر التي تبعث البهجة والمسـرّة بين الناس في الوسط الاجتماعي.

وخلاصة القول: فإن حياتهم مليئة بالسـلبية في كل جوانبها؛ السـلبية الباعثة على التثبيط والخمول والكسـل في مسيرة الحركة الاجتماعية نحو الرقي.

التوكل مبعث التفاؤل

وعلـى هـذا فإن التـوكل علـى اللّه يُزيـل مثل هـذه الصورة السـلبية مـن المجتمـع الإنسـاني المؤمـن، وهـو مبعـث التفاؤل والخيـر والازدهـار، وهو السـلاح الفعّال الذي يقـف في مواجهة أوهـام الفشـل وأشـباحه. فحينما يُعَشِّـش وَهْمُ الفشـل فـي عقلية الإنسان الضعيف في إيمانه، فإن هذا الوهم لوحده سيُمَهِّد لنصف الفشـل الحقيقي. فحين تطلب من هكذا إنسـان القيام بعمل معين يتطلب بعض العنـاء والجهد، تراه يخاف ويتردد في الإقدام عليه، ويتقاعس عنه، كل ذلك بوحي من أوهام السـقوط والفشل. ومثل هـذا الإنسـان يفشـل بالفعل لأنه هـو الذي مَهَّـد لفشـله بأوهامه، فكانت فسـيلة الفشـل التي غرسها في بسـتان حياته الجافة الميتة، في حين أنه لو كان مؤمناً حقّاً، وذا عزيمة، وتوكل على اللّه، لنجح

بالتأكيد في إنجاز ما خاف منه.

ومن هنا كان الخوف من الفشل نصف الفشل في الحياة، ووهم الفشل هو -بحد ذاته- صورة من صور وسوسة الشيطان في قلوب الناس، وحديثه مع النفس الإنسانية. فلابد -إذن- من إفشال أسلوب الشيطان هذا بالتوكل على اللّه العزيز.

وعلى هذا فإن التوكل يطرد من النفس الإنسانية المخاوف والأوهام والوساوس الكامنة فيها، ويفتح أمامها آفاق التحرك الواسعة.

٣- ربط القلب بالقوة الرحمانية

البعد الثالث في التوكل هو ربط وشد قلب الإنسان بقوة الرحمن وقدرته اللامحدودة. فالرافد قد يبقى صغيراً ولكنه يقوى ويعظم حين يتصل بالبحر الممتد مع الآفاق. وكذلك هو حال الإنسان فلا ريب في أنه مخلوق ضعيف في بنيته وكيانه، محدود في طاقاته.. ولكنه سرعان ما يقوى ويتسع في طاقاته وآفاقه، وتتذلل أمامه العظام من الأمور، وتنحني له الطبيعة طائعةً مُسخَّرةً عندما يتصل ببارئه الأزلي الذي لا تحدُّه حدود، ولا تنتهي قدرته، ولا يقهر سلطانه وجبروته.. ومثل هذه القدرة كمثل ذلك البحر، فلابد للإنسان من أن يتصل بهذا البحر العظيم؛ بحر القدرة الإلهية الذي لا يحدُّه شيء.

ولا يمكن أن يتحقق هذا الاتّصال إلّا بجسر التوكل، وهذه هي حقيقة التوكل التي تعني أن يخرج الإنسان من حوله وقوته

المحدودتين ليدخل عالم الحول والقوة الإلهيتين. ولذلك جاء تأكيد الإسلام على بدء الأفعال والنشاطات والحركات الحياتية بذكر اللّه المعروف بـ(البسملة) في كل صغيرة وكبيرة، فلابد من ابتداء كل عمل بالاسم الجليل المبارك والصفة التي هي أحب الصفات إليه -سبحانه- ألا وهي صفة الرحمن الرحيم.

وقد رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: «**قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: يَا عَلِيُّ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا وَقَعْتَ فِي وَرْطَةٍ أَوْ بَلِيَّةٍ فَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَصْرِفُ بِهَا عَنْكَ مَا يَشَاءُ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ**»[1].

والسبب في ذلك أن هذا الذكر المبارك -كما تشير إلى ذلك الروايات- هو أقرب الأذكار إلى اللّه سبحانه لتضمنه معنى التوكل عليه -تعالى- وهو أن ما لدي من حول وقوة لم يكن مني، بل منه سبحانه.

أمير المؤمنين عليه السلام مثال التوكل

وإذا أردنا أن نضرب مثلاً حيًّا للتوكل، لا نتعدى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو القمة السامقة في هذا الخصوص.

وقد نقرأ ذلك بكل وضوح في واقعة يوم المبيت، حيث

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٥٧٣.

تآمرت قريش على قتل رسول اللّه ﷺ. وتبعاً لذلك «أَخْبَرَهُ جَبْرَئِيلُ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ وَوَحْيِهِ وَمَا عَزَمَ لَهُ مِنَ الْهِجْرَةِ، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ لِوَقْتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَلِيُّ؛ إِنَّ الرُّوحَ هَبَطَ عَلَيَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ آنِفاً[1]، يُخْبِرُنِي أَنَّ قُرَيْشاً اجْتَمَعَتْ عَلَى الْمَكْرِ بِي وَقَتْلِي، وَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيَّ عَنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ أَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي، وَأَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ تَحْتَ لَيْلَتِي، وَأَنَّهُ أَمَرَنِي أَنْ آمُرَكَ بِالْمَبِيتِ عَلَى ضِجَاعِي -أَوْ قَالَ مَضْجَعِي- لِتُخْفِيَ بِمَبِيتِكَ عَلَيْهِ أَثَرِي فَمَا أَنْتَ قَائِلٌ وَصَانِعٌ؟

فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: أَوَتَسْلَمَنَّ بِمَبِيتِي هُنَاكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟

قَالَ: نَعَمْ.

فَتَبَسَّمَ عَلِيٌّ عليه السلام ضَاحِكاً وَأَهْوَى إِلَى الْأَرْضِ سَاجِداً شُكْراً لِمَا أَنْبَأَهُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَلَامَتِهِ»[2].

ومثال آخر لتوكل الإمام علي عليه السلام ننقله من معركة الخندق.

«لما كان يوم الأحزاب أقبل عمرو بن عبد ود العامري، وكان من أشد الناس شجاعة وإقداماً، فضرب فرسه فأجازه الخندق، ثم طفق ينادي: هل من مبارز؟ فلم يجبه أحد. فلما طال ذلك به، أنشد يقول:

---

(١) وهي قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ المجلسي، ج١٩، ص٦٠.

ولقد بححت من النداء بجمعهم: هل من مبارز
ووقفت حين دعوتهم في موقف القرن المناجز
إنـي كـذلـك لـم أزل متسرعاً نحو الهزاهز
إن الشـجاعـة للفتى والجود من كرم الغرائز

فقـام علـي بن أبي طالب عليه السلام، فقال رسـول اللّه صلى الله عليه وآله: يا علي؛ إنه عمرو بن عبد ود.

فقال علي: أستعين باللّه عليه يا رسول اللّه.

فأذن له رسـول اللّه صلى الله عليه وآله، ودفع إليه سيفه ذو الفقار، ورفع رسول اللّه صلى الله عليه وآله يده، وقال: اللّهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته.

ومضى علي عليه السلام وهو يقول شعراً:

أتـاك أتـاك لما دعوت مجيب صوتك غير عاجز
ذو نـيـة وبـصـيـرة والصدق ينجي كل فائز
إنـي لأرجـو أن تقوم عليك نائحة الجنائز»[1]

ولا يغيب عنا أن الإمام علي عليه السلام هو إنسـان لا يختلف في البنيـة التكوينية عنا، فهو مثلنا محدود مهما بلغت قوته الجسـمية، ولكن سرّ قوتـه وطاقتـه الهائلة وشـجاعته يكمن في إيمانـه باللّه تعالـى، وتوجهـه واعتمـاده واتّكاله عليه، وقد وصـل حوله وقوته بحول اللّه وقوته.

(١) شرح الأخبار، القاضي نعمان المغربي، ج١، ص٣٢٢.

من كل ذلك يتضح لنا أن الإنسان بمقدوره أن يُسلِّم أمره للَّه تعالى إذا أدرك ووعى كيف يرتبط ويندمج بقدرة اللَّه عز وجل. ومثل ذينك الموقفين لعلي عليه السلام هما من جملة آلاف الأمثلة التي عاشها في كل لحظات حياته، ولا يمكننا تفسيرهما إلَّا بالتوكل على اللَّه تعالى، وهما قمة هذا التوكل، وأعلى درجاته.

التوكل يفتح الآفاق الخيِّرة

وعندما يتكل الإنسان على اللَّه، ويجعل كل ثقته به، لابد أن تنفتح أمامه الآفاق الخَيِّرة، لينطلق في رحاب الحياة بتفاؤل ونشاط وحركة مثابرة، ولابد أيضاً أن تنفتح مواهبه العقلية، وآفاقه الفكرية، ويتمتع بالرؤية السليمة في الحياة.

والسياق القرآني في سورة يونس يعكس حال مجموعة مستضعفة من بني إسرائيل استضعفهم وأذلهم فرعون الطاغي بملكه وأمواله ورجاله وأتباعه من السحرة في البلاط، لا لجرم سوى إيمانهم بموسى عليه السلام، فيقول السياق طارحاً جانباً من حالهم: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1].

فالذين آمنوا لموسى عليه السلام هم بعض قومه والفئة القليلة منهم، وقد وصفهم السياق القرآني بأنهم ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، فلم يُؤمن كل بني إسرائيل، وهذه القلة التي آمنت كان إيمانها ممزوجاً

(١) سورة يونس، آية ٨٣.

بالخوف من فرعون وسطوته، والخشية من ساداتهم وكبرائهم، وزعماء قبائلهم الذين يشير إليهم السياق بـ(الملأ).

وقد كان خوفهم هذا نابعاً من تهدد مصالحهم المرتبطة بالطاغية وحاشيته، إضافة إلى جبروت فرعون وظلمه وجوره الذي تشير إليه الآية بقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

فهذا الطاغية كاد يستولي على كل شيء، فضلاً عن القوة والمال والغنى.. وهنا يأتي الامتحان الإلهي على لسان موسى عليه السلام إذ يقول لهم: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[2].

ويتمثل هذا الامتحان في التوكل، فهو محك الإيمان والعقيدة، بل وذاتهما المجسدة، فالإنسان إنما يثبت إيمانه من خلال توكله على الله تعالى، والتسليم له، وحينئذ لا يعود يهاب المعضلات والصعاب، وقوى الكفر.. فليس للإنسان أن يدّعي الإيمان والتسليم إن لم يكن يحمل روح التوكل على الله والثقة به التي تبعث فيه الشجاعة والإقدام.

فكان جواب تلك الثلة المؤمنة القليلة أن قالت: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة يونس، آية ٨٣.

(٢) سورة يونس، آية ٨٤.

(٣) سورة يونس، آية ٨٥ – ٨٦.

فهذه الكلمة -كلمة التوكل- التي هي أثقل ما في ميزان الجزاء يوم القيامة عندما أذعنت لها قلوب مؤمنة صادقة عندئذ تهاوت صخور المعضلات، وذابت الصعاب، وهانت المشكلات، ومن ثم تهاوت الأصنام والقوة الاستبدادية الجائرة؛ هذه الكلمة أقرّ بها المؤمنون من قوم النبي موسى عليه السلام فكانت بداية السقوط الفرعوني، واندثار عهد الجور والطغيان، لأن عقد الخوف والأوهام زالت من عقولهم، ولم يعودوا يتشاءمون من الأيام والساعات والأشهر، حيث غدت كلها جهاداً ونشاطاً وعملاً دؤوباً لمقارعة الجور والظلم والاستعباد. لقد توكلوا على اللّه تعالى، واتجهوا إليه بالدعاء، يستلهمون منه القوة والعزم والعناية والتدبير.

وفي هذا السياق الكريم نكتشف علائق تربط بين التوكل والدعاء، فهما يبدوان في السياق مترابطين متلازمين، حيث يبدو الدعاء عمقاً للتوكل؛ أي أنك إن أردت وعزمت التوكل على اللّه فلابد أن تعمر قلبك بالدعاء دائماً.

بين التوكل والتواكل

ثم ينتقل السياق ليطرح جانباً من التخطيط للعمل والحركة في مواجهة فرعون وملئه وطغيانهم، فيقول اللّه تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

(١) سورة يونس، آية ٨٧.

أي أن التوكل ليس معناه أن تقول توكلت على اللّٰه ثم تركن إلى زاوية في بيتك. وفي هذا المجال أشار رسول اللّٰه ﷺ في قوله للسائل الذي قال: أرسل ناقتي وأتوكل؟

فقال ﷺ: «لَا، بَلْ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[1].

وهنا لابد من الإشارة إلى مفارقة في معنى كلمة التوكل، وكلمة التواكل؛ فليست الأولى كالثانية. فالتوكل هو الفاعلية والحيوية والعطاء، بينما التواكل يعني التقاعس والخلود إلى الراحة والنوم والجلوس في البيت. ومن هذا التواكل ما يعكسه لنا القرآن على لسان قوم موسى في قوله: ﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[2]. وهذا المنطق مرفوض في الإسلام. فشتان ما بين المعنيين؛ التوكل والتواكل، فقد كان الأمر الإلهي أن يجعلوا بيوتهم متقابلة، ويقيموا فيها مجتمعهم الإيماني بعيداً عن مجتمع فرعون الوثني. ﴿وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

والتأكيد على الصلاة والمواظبة عليها كل ذلك ينمُّ عن الحيوية والخير والبشرى وتحقق الآمال العظام، وتفتُّح آفاق العمل والحركة والنشاط.. وعندما اتَّبعوا هذا النهج ذاعت كلمتهم وانتشرت، وقويت شوكتهم حتى كانت لهم السيادة في الأرض

(١) المبسوط، شمس الدين السرخسي، ج ٣٠، ص٢٤٩.

(٢) سورة المائدة، آية ٢٤.

(٣) سورة يونس، آية ٨٧.

بعد هلاك فرعون وجنوده.

من هنا يجدر بكل من يحمل راية العمل في سبيل اللّه أن يعتبر من ذلك كله وألّا تثبط عزيمته وسعيه الجهادي تلك التراجعات البسيطة، والتعثر المحدود في المسيرة، وإن حدث ذلك فيجب ألّا يتحوّل إلى تراجع نفسي خطير أمام المشاكل والصعاب. وفي الوقت ذاته يجب ألّا يُصيبنا داء الغرور عندما نجني بعض ثمار النصر، لأن هذا النصر إنما هو من اللّه تعالى وبقوته لا بقوة أنفسنا وحولها.

ومادمنا واثقين باللّه سبحانه، وسلطانه اللامتناهي، فلا يجب أن ننهزم نفسيًا عندما نُمْنَى بنكسات، بل يجب أن نُواصل العمل والجهاد لأننا مؤمنون باللّه ومتوكلون عليه. وهذا هو محك التوكل الحقيقي وهو عدم الانهزام النفسي والروحي.

وعلى هذا يجب ألّا تموت هذه الروح فينا وتغادر أنفسنا حتى في أحلك الظروف، وأقسى الحالات. فيجب أن يبقى أملنا باللّه حيًا وإن كُبِّلْنا بالأغلال، وقُطِّعنا بسيوف الحقد.. فالذي يتوكل على اللّه حقًا تُذلل أمامه كل الصعاب، ويعيش ويموت شجاعاً متحدياً إياها.

الإنسان ذلك المسؤول

لابد من وجود أسباب وعوامل تؤدي بالأمة إلى الشقاء والتخلف والتبعية وما إلى ذلك من سلبيات، وهناك عوامل وأسباب تدفع الأمة لأن تسير نحو التطور والتحرر تحت الظلال الوارفة للسعادة والكرامة.. ترى ما هي هذه العوامل والأسباب؟

عندما نتلو بتمعن وبصيرة آيات الذكر الحكيم، نلمس أنها تُركِّز عادةً على العوامل والأسباب الذاتية للتقدُّم أو التخلُّف، ولا تتطرق في حديثها إلى الأسباب الموضوعية إلَّا بنزر يسير. ترى هل أن عوامل تقدُّم الأمة تكمن في كون أرضها خصبة معطاء، أم لأن الأمم الأخرى وقفت تُؤازرها وتُعينها، أم لأن السعد وُجِدَ في طالعها.. وعلى العكس من ذلك هل أن أسباب تخلُّفها لابتلائها بنقيض تلك العوامل؟

إن عوامل السعد والشقاء هذه لا نجد لها ذكراً في القرآن، فلا نجد هناك -على سبيل المثال- آيةً تُحدِّثنا عن أمة تخلَّفت

لأن الطغاة أرادوا لها التخلُّف والهزيمة، أو لأن أرضها فقيرة إلى الثروات الطبيعية، أو لأن طالعها سيِّئ مشؤوم.. مثل هذه العوامل الخارجية نادراً ما نجد لها ذكراً في القرآن، بل إن الذي يُؤكِّد عليه هذا الكتاب هو العوامل الذاتية، ونُورد على سبيل المثال بعضاً من الآيات القرآنية كشاهد على ذلك:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[4].

الإنسان هو المسؤول الأول

فالمسؤولية -إذن- محصورة أولاً وأخيراً في كيان الأمة الذاتي نفسه، وفي ذات الفرد الذي بمجموعه يتشكل كيان الأمة. فأنت أيها الإنسان المسؤول الأول عن حياتك ومصيرك ووجودك وهويتك. فعلى عاتقي وعاتقك تقع المسؤولية الأولى ومن بعدها تأتي المسؤوليات الأخرى.

(١) سورة الإسراء، آية ٧.
(٢) سورة الرعد، آية ١١.
(٣) سورة الإسراء، آية ١٥.
(٤) سورة النجم، آية ٣٩.

إن مثل الأمة التي تعي وتعيش مسؤولياتها التاريخية بالنسبة إلى تلك الغافلة المتجاهلة التي تحيا حياتها ساذجة تموج بها الأمواج، وتذروها الرياح كمثل الفسيلة التي تنمو وتكبر شيئاً فشيئاً حتى تصبح شجرة في المستقبل تُؤتي أُكُلَهَا كل حين بإذن ربها، في حين يبقى العود اليابس الميت مغروساً في الأرض حتى يتآكل تدريجيًا ثم يهوي إلى الأرض.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الأمة الحيَّة الواعية التي لو بذرت بذورها في بقعةٍ ما حولتها إلى جنة خضراء يانعة مُفعمة بالحيوية والحركة والنشاط، في حين أن الأمة التي تضم في داخلها أبناءً هم غُثاء كغُثاء السيل، فإنها تبقى ميتة مُتخلِّفة عن الركب الحضاري، منهزمة في ساحة الصراع وإن كان كيانها قائماً على محيط من الثروات الطبيعية.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن إفريقيا هذه القارة العظيمة تعيش حالة يُرثى لها من التخلُّف حتى يومنا هذا، بينما تعيش على أرض حافلة بالكنوز الطبيعية والثروات والمعادن الثمينة، ولكن الشعوب الإفريقية عاشت ردحاً من الزمن وهي تجهل ما في أرضها من هذه الكنوز والثروات، وتغفل عن سُرَّاقها ممن أُوتوا وسائل التقدم الحضاري الحديثة.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الدول العربية التي تضم أراضيها بحار النفط، ومستودعات الغاز الطبيعي، إضافة إلى الثروات المعدنية، والأراضي الزراعية الخصبة والأنهار الممتدة.. ولكن

معظم أبنائها يعيشون الفقر والحرمان في جوٍّ من الاضطهاد والكبت والاستبداد السلطوي.

وإزاء ذلك انظر إلى هذا المستوى الشامخ الذي بلغته اليابان، رغم أنها تعيش في مجموعة من الجزء الصغيرة، مُهدَّدة بمخاطر البراكين والزلازل والفيضانات.. ورغم ذلك فقد غدت هذه الدولة اليوم ربما الأولى في رُقِّيها الحضاري.

وعلى هذا فإن الإنسان والأمة هما اللذان يؤثران في الطبيعة، ويصنعان منها وجوداً حضاريًا جديداً راقياً، لا الطبيعة. فالطبيعة لا يمكن أن تكون حائلاً أمام الإنسان أو الأمة ذات الإرادة القوية. أما بالنسبة إلى الأمة الميتة فإن ظروف وأحوال الطبيعة ومتغيراتها يمكن أن تموج بها، وتقذفها إلى كل شاطئ.

ولعل أجمل تصوير للتباين الكبير بين هذه الأمة وتلك هو ما عرضه القرآن الكريم في بعض آياته، إذ يقول ربنا سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [1].

وفي موضع آخر يقول عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى

(١) سورة الأعراف، آية ٥٨.

ﭐلْأَخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1].

إن المؤمن المُفْعَم بالحيوية والنشاط، والواعي لظروفه، والمنطلق في رؤاه ونظرته الحياتية من منبع فكر أصيل، وصاحب الهمة الكبيرة، والقدرة الحركية الوثّابة، هو الذي يُثبّته اللّه، وهو الذي يَعنيه المثل القرآني الآنف الذكر؛ فهو كالشجرة الطيبة الراسخة جذورها في أعماق الأرض لا تُزحزحها العواصف، تنمو وتتفرّع وتنتشر وتُؤتي أُكُلَهَا كل حين بإذن ربها، وليس كالعود الميت الذي تنخره ديدان الأرض حتى يسقط وينتهي.

إلى متى نعيش في عالم التبريرات؟

ترى إلى متى نبقى نُردِّد في مجالسنا ونلوك التبريرات والأعذار الواهية نُبرِّر بها خمولنا وتقاعسنا؟

إن اللّه تعالى لم يخلقنا جمادات وأحجاراً لكي نبقى هكذا، بل إن هذه السلبيات نابعة من أنفسنا وذواتنا؛ فنحن الذين قتلنا الحيوية فينا، وأسكتنا الروح الوثّابة في داخلنا، ونحن الذين اخترنا زوايا الجمود، ومضاجع التقاعس، ولبسنا جلباب الاتكال، ورضينا بالذلة والخنوع، وَقَبِلْنَا الهزيمة الحضارية.

لقد خلقنا اللّه سبحانه بأجسام سليمة، ومنحنا العقول التي تصنع المستحيل لو استُثمرت بالشكل الصحيح، ولكننا أمتناها

(١) سورة إبراهيم، آية ٢٤ - ٢٧.

فماتت هِمَمُنَا، وَضَعُفَتْ إرادتنا، فانزوينا عن الركب.

وبعض أولئك الذين فرضوا وجودهم الحضاري علينا راح يطرح نظريات خاطئة أراد من خلالها إبقاءنا على ما نحن فيه من تخلُّف وهزيمة حضارية، لكيلا نُفكِّر يوماً في التخلُّص من شَرَك هذا التردِّي والتخلُّف، ونبقى قانعين بما نحن عليه. ومن جملة تلك النظريات المغلوطة الادِّعاء أن ذوي البشرة البيضاء -هذا الادِّعاء النابع من نظرية عنصرية بحته- لابد أن يكونوا متفوقين عنصريًّا على ذوي البشرة السمراء أو السوداء.

والدليل على خطأ هذه النظرية هو أننا نرى اليوم أن الأسود أو الأسمر الذي يعيش في بلد متقدم، يُواكب التقدم ويساهم في رُقِي هذا البلد، ولعل هذه النظرية العنصرية كانت لدى فلاسفة اليونان القدماء، فهي ليست بالأمر الجديد. فأرسطو كان يرى أن اللَّه تعالى خلق الناس على أربع طبقات، فمنهم الرؤساء الذين يبقون هم وذريتهم رؤساء، ومنهم العلماء والحكماء، ثم طبقة الحرفيين، وهذه الطبقات -على ما يرى أرسطو- تُشكِّل نسبةً ضئيلةً من مجموع المجتمع، أما الغالبية الساحقة فهي الطبقة الرابعة، طبقة العمال، حيث يرى أرسطو أنهم إنما خُلِقوا ليخدموا تلك الطبقات المُرفَّهة، وهم في نظره ليس لهم من الإنسانية إلَّا الصورة فحسب، وأنهم في حقيقتهم متوحشون، وقد أراد اللَّه تعالى أن يخلقهم حيوانات ولكنه عدل عن ذلك لأن سائر الناس سيُصيبهم الرُّعب منهم!

وبعدُ فهذه هي الغالبية العظمى من الناس على رأي أرسطو والأرسطائيين من مثله، وكان يسميهم بـ«البرابرة»، وقد سقطت هذه النظرية في أوروبا منذ عهد النهضات الفكرية والتحررية التي اختتم بها القرون الوسطى، لكن آثارها العميقة بقيت، وظهرت بصور أخرى كما هو الحال في الأنظمة العنصرية المتسلطة على إفريقيا، وكما هو الحال في الحركة الصهيونية العنصرية.

وقد أسقط الإسلام النظرية الأرسطية وفَنَّد مزاعمها..، هذا الدين الذي شعَّ نوره على الأرض منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

وقد تشبَّث العنصريون الجُدد بهذه النظرية البالية التي أثبتت فشلها لعدم امتلاكها لأية قيمة علمية ولو بنسبة واحد بالمليون، وقد فشلت مساعيهم وخاصةً في جنوب إفريقيا بفعل قيام حركات قادها البيض أنفسهم تدحض هذه النظرية العنصرية وأمثالها، وتثبت أن السود ليسوا أقل فكراً وعلماً وإنسانية من البيض على الرغم من أن الصهيونية العالمية والإمبريالية ما تزالان تتشبَّثان بالنظرية الأرسطية البالية، لا عن إيمان ويقين بصحتها، وإنما لتحقيق أهداف استعمارية توسُّعية خبيثة للهيمنة على أمم الأرض المستضعفة من غير الجنس الأوروبي أو الأمريكي.

لماذا نحن متخلفون؟

وإذا كان الأمر كذلك، ترى ما الذي يجعل الإنسان الإفريقي أو العربي أو الهندي مُتخلِّفاً حضاريًّا؟ ولماذا آلت الظروف لأن

تكـون هناك طبقة تُسـمَّى بـ«المنبوذين» في الهنـد، والتي أضحت وصمة عار في جبين الهند، فهؤلاء الذين لا يحق لهم أن يمارسـوا ما تمارسه الطبقات الراقية من أعمال، لماذا لا يحق لهم إلَّا العمل في المجالات الخدمية المتدنية؟

وعندما تسـأل أحد أفـراد هذه الطبقة: لمـاذا لا يحق لك أن تعيش كمـا يعيش أبناء الطبقات الراقية؟ فإنه سـيبرر ذلك بالقول: إن روحه كانت موجودة في عالم آخر وفي جسد آخر وقد ارتكبت آنـذاك ذنباً، فكان عقابي أن جعل اللّـه روحي في طبقة المنبوذين، لذلك كان عليَّ أن أبقى منبوذاً ما عشت، وربما سيجعل اللّه روحي بعد الموت في أجساد أفراد الطبقة الراقية!!

وهكذا يُقنعون أنفسـهم بهـذه التبريرات الباهتـة، ويُفكِّرون بهـذه العقلية المُتخلِّفة، والواحد من هؤلاء تراه يسـير في شـوارع الهنـد بملابـس جديـدة ولكنـه حافـي القدمين لأنـه مـن طبقـة المنبوذين. فهم يحرمون على أنفسـهم أن يلبسـوا الأحذية! ومثل هـذه العقليـة، وأمثالها من العقليات العنصريـة والطائفية في الهند هـي التي جعلت هـذا البلد يعيش التخلف لـردح طويل من الزمن وما يزال. ففي الوقت الذي كان فيه عدد نفوس الهند يبلغ أربعمائة مليون نسـمة بينما البريطانيون لا يتجـاوزون الأربعين مليوناً، كان الزعيـم الهندي (غاندي) الذي يعود له فضل تحرير الهند يخاطب أبناء شـعبه، ويحُثُّهم علـى الثورة بقوله: لـو أن كل واحد منا بصق على بريطانيا لأغرقناها بِبُصاقنا. مُبيِّناً بذلك عظيم قدرتهم.

تبرير التقاعس والتخلف بالضعف

إن المتقاعسين يدأبون على تبرير تقاعسهم وخنوعهم وتخلّفهم بأنهم خُلِقوا ضعفاء، وحاشى للّه تعالى أن يظلم فيجعل أمة ضعيفة وأخرى قوية. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾[1].

فادّعاء كهذا يجرُّ صاحبه إلى منزلق الكفر، لأنه يبعث الشك في العدالة الإلهية، وهذا ما لا يغفره اللّه لصاحبه. فكيف يصح أن يدّعي أحد العمى وقد أُعطي عينان يُبصر بهما، أَوَلَيس ذلك كفراً بأنعم اللّه؟

وعلى هذا لا ينبغي لأحد أن يبقى في أسر أغلاله الذاتية واللّه سبحانه قد رزقه العقل والعينين والأذنين واليدين والرجلين، وأتاح له الفرص، ووفّر له الإمكانات الهائلة.. فلا يحق لنا بعد ذلك أن نُبرّر الجمود والتقاعس فينا بأننا غير قادرين على فعل شيء، وقد كُتِبَ علينا الضعف، ولغيرنا التسلُّط والقوة والغلبة.

وربما غاب عن الكثير منا أن المظلوم أو المستضعف قد يعاقبه اللّه لأنه رضي بالظلم والاستضعاف، وركن للظالم، وخضع لاستبداده وجبروته.. أَوَلَيس الراضي بالظلم كالظالم؟

فاللّه سبحانه لا يرضى ولن يقبل من عبده الذي خلقه فأحسن خلقه وتقويمه أن يتمسكن، ويتظلّم، ويستضعف نفسه،

(١) سورة فصلت، آية ٤٦.

ويسكت عن كل ما ينزل بساحته من ظلم وجورٍ وتعدٍّ.

لماذا لا نستثمر هذه القوى الكامنة فينا، والإمكانات والثروات التي رُزقنا بها لبناء حضارتنا ووجودنا؟

رُوي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، أنه قَالَ: كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ: «**مَنْ وَجَدَ مَاءً وَ تُرَاباً ثُمَّ افْتَقَرَ، فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ**»[1].

وهكذا فإن المستعمرين والمستكبرين يريدون لنا أن نتشبَّث بتبريراتنا الواهية لتخلُّفنا وانهزامنا، في حين أنها ليست إلَّا مجموعة أغلال قيَّدنا بها أنفسنا. فهذا القرآن الذي هو بين ظهرانينا يهتف أنْ يا أيها الناس أنتم المسؤولون عن حياتكم، ولا بد من أن تبلغوا الأهداف السامية بالتوكل على اللَّه، والاعتماد على أنفسكم وطاقاتكم.

السبيل إلى الأهداف المنشودة

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه: كيف يمكن الوصول إلى الهدف المنشود، وكيف نعمل من أجله؟

لابد لبلوغ الهدف ومعرفة كيفية العمل من الأخذ بالنقاط التالية:

١ - لابد من استغلال الفكر، وإعمال العقل الذي وهبه الباري لعبده، ولذلك فإن مسؤولية التقصير يتحملها

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج١٢، ص٢٤.

الإنسان إن هو لم يستثمر طاقة التدبير العقلي. فالعقل إذن هو المصباح الذي يُنير لنا طريق العمل نحو الرُّقي الحضاري، ولابد من استثماره ما أمكن.

٢- من الواجب استثمار كتاب اللّه الذي يقوم بمهمة الهداية والتوجيه وأيضاً معالم طريق العمل، فهو سراج يضيء هذا الطريق إلى جانب سراج العقل، فلابد من التدبُّر والتبصُّر في هذا الكتاب، وتجسيد تعاليمه في الحياة.

٣- بذينك السّراجين؛ سراج القرآن، وسراج العقل يُمكننا أن نعمل على توحيد كيان الأمة، والمضي بها في سُلّم التطوُّر والتقدُّم الحضاري، فإن أمتنا لم تتمزّق ولم تتفرّق إلّا حين أغفلت دور هذين النورين، وهذا القرآن يدعو الناس إلى التمسك به والعمل وفق توجيهاته: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[1]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾[2].

إنّ تشتُّت أبناء الأمة، واختلاف أحزابها وتنظيماتها، يعنيان توجُّه كل مجموعة للبحث عن تلك التي تناصرها وتشاطرها نظراتها وآراءها، فإن لم تجد فإنها تعمد إلى البحث عمن يتفق معها في الآراء في المجتمعات الأخرى.

وهكذا يتمزق المجتمع الموحَّد إلى مجموعات وطوائف

(١) سورة المائدة، آية آية ٢.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

تتجه إلى هذه القوة أو تلك حتى تسقط في شرك العمالة والتبعية للأجنبي، وإذا بالأمة يؤول مصيرها إلى التمزُّق والضياع والانفصالية بعد أن تتكالب عليها القوى المستعمرة الطامعة.

وهل يصح أن نُبرِّئ ساحتنا عما يجري من ويلاتٍ ومآسٍ؟ ولماذا ننتظر من يترحم علينا بالتغيير الذي نطلبه والله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾؟[1].

إن مُشكلتنا الكبرى تكمن فينا، والمسؤولية الكبرى تقع على عواتقنا جميعاً أفراداً وجماعات. فليس من الصحيح أن نُهمل قضيَّتنا ونجلس في زاوية ننتظر الفرج من هذا الرئيس أو ذلك، ونبقى نَعدُّ الأيام والأسابيع ونُقلِّب الصحف، ونستمع إلى الإذاعات عَلَّنا نسمع ما يبعث فينا الأمل، بل لابد من أن نعرف دورنا، ونتحمَّل مسؤوليتنا الكبرى في التغيير. هذه المسؤولية لا مناص لنا منها، ولا بد من أن نأخذ موقعنا في الأحداث التي تجري في ساحتنا.

ترى أين نحن اليوم مما يجري، ولماذا كل هذا التمزُّق والتشتُّت، ولماذا شغلتنا التوافه من الأمور الدنيوية وتحوَّلنا إلى أناس أنانيين همّ كل واحد منا نفسه، ولماذا تغافلنا عن قضيتنا ومسؤولياتنا وانصرفنا إلى هموم الدنيا والبحث عن مكامن الأموال والأرباح، وصار حديثنا لا يتعدى الدولار وارتفاع سعره

(١) سورة الرعد، آية ١١.

وانخفاضه، أو التوجُّه للعمل في الحركات والتنظيمات باحثين عمن يدفع لنا أكثر، ويوفر لنا من المعيشة ما هو أفضل، فانعدمت فينا نيَّة العمل في سبيل اللّه ونصرة قضيتنا؟

وعلى هذا فليعمل الجميع بمسؤولياتهم، وليحتل كل منا موقعه، ولنُوحِّد صفوفنا، ونُؤدِّي دورنا الفاعل سواء على صعيد العلماء أم الأفراد أم الأحزاب والتنظيمات، ولنتجنب كل ما يُفرِّق صفوفنا، ويُثبِّط هممنا، ويعيق مسيرتنا، وإلَّا فإن الحال سوف لن يتغير.

إن اللّه سبحانه جعل الأشياء تتحرك وتؤدي دورها في الطبيعة وفق السنن التي وضعها لها. فكما أن النار قد خلقت حارقة وستبقى كذلك إلى الأبد، فكذلك حال الأمة فإنها لن تتغير إلى الأفضل ما لم تقم بعملية التغيير بنفسها، وإلَّا فإن حالها سيير نحو الأسوأ فالأسوأ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[1].

فهذه هي السنن الإلهية في فعلها وأثرها على الطبيعة والحياة.

ولا بأس أن تدعو اللّه تعالى لتغيير حالك، فهو -تعالى- يحب من العبد أن يدعو، ولكن شريطة أن يصحب الدعاء العمل.

---

(١) نهج البلاغة، رسالة رقم٤٧.

فالدعـاء دون عمل لا فائدة منه، والعمل الذي يصحب الدعاء إنما هو تجسـيد حقيقي لدعوة اللّه سـبحانه. وهكذا فإذا لم تُؤدِّ دورك الذي أنت مسؤول عنه بنفسك، وإذا لم تسر في الطريق الصحيح.. فـلا تتوقع تغيّـر حالك ووقوع ما تنتظره ولو دعوت اللّه ألف سـنة باكياً ومتضرعاً.

المطلوب؛ الشعور بالمسؤولية

بعـد ذلـك كلـه يتضـح أن مـا هـو مطلـوب منا، هـو تحمل المسـؤولية كاملة، سـواء كانت فردية أم اجتماعية، وأن نعيش هذه المسؤولية على الدوام، ثم نعمل بها متعاونين متكاتفين يشد بعضنا أزر بعـض في جو ملؤه التفاهم والـروح الأخوية المُؤطَّرة بالإيثار والتضحية والبذل والهمم القوية.. فالعمل الجماعي ضرورة لابد منه ما دامت الحياة الفردية الانعزالية غير ممكنة، واللّه تعالى سينظر بعين الرحمة إلى عباده المتعاونين المتآخين.. وحينئذ سـينصرهم ويُسـدِّد خطاهم، ويفتـح لهم ألف باب وبـاب للفرج والخلاص، وإلّا سيبقى حالنا على ما نحن فيه إن لم يتحوَّل إلى الأسوأ.

الحياة الطيبة

إن من أعظم نعم اللّه على الإنسان في هذه الدنيا هي نعمة الحياة التي تستتبع سائر النعم، ولابد لنا من أن نعي ونتحسس هذه النعمة الإلهية الكبرى ونتفاعل معها.

وتعدُّ الحياة بحد ذاتها سر الأسرار، وغيب الغيوب؛ فهي السر الإلهي الأعظم الذي لم يعرف كنهه هذا العلم الذي بلغ مراحل شامخة من التقدم والتطور، كما ولم تنله الفلسفة، فبقي سر الحياة غامضاً حتى على أولياء اللّه، إذ اختصَّ -سبحانه- بعلمه، فهو الذي يهب الحياة، ويسلبها ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي.

ومع أن الحياة هي الحقيقة العظمى في هذه الطبيعة، والسر الخفي، والغيب الكامن، إلّا أن ذلك ليس معناه أن نتجاهل كونها نعمة نعيشها، ونتواصل معها. فبالدنيا نحصل على الآخرة، ونفوز بثوابها، أو ينالنا عقابها؛ فلو أن أحدنا ملك ملء الأرض ذهباً فمات

ثم خُيِّر أن يرجع إلى الدنيا ليتدارك ما فاته، وليعمل خيراً ينفعه في الآخرة، لأنفق كل ما كان يملك من أجل أن يبقى سُويعة واحدة فقط؟ ترى ما السبب في ذلك؟

السبب في ذلك أن كل ما يتمناه العبد ويرجوه في الآخرة يمكن أن يضمن نيله والحصول عليه بعمله في هذه الدنيا. فالدنيا هي دار التزود للآخرة التي يأتيها كل إنسان وطائره في عنقه.

ويوم يرى الإنسان صحيفة أعماله سوداء قاتمة ملوثة بالسيئات والمنكر والذنوب، مليئة بما هو خزي وعار.. عندئذ يقول بلهجة ملؤها الحسرات والزفرات: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، فيأتيه الجواب من الباري -تعالى-: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

هذه هي نهاية الإنسان في الحياة؛ الموت يفاجئه ويسلبه من كل ما هو فيه من الآمال والأحلام، فتراه يصبح في لحظة واحدة كالخشبة اليابسة التي لاحول لها ولا قوة، والأهل حوله ينتظرون موته لحظة بلحظة كي يهيلوا عليه التراب ليتقاسموا تركته من بعده.

ونحن كثيراً ما نشهد ونسمع أن أبناء فلان تشاجروا وتقاتلوا على إرث أبيهم وجثمانه ما يزال ماثلاً إمامهم لم يوارَ الثرى بعدُ، والأنكى من ذلك أن أحدهم ربما يسقط ضحية هذا النزاع على الإرث.

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٩٩-١٠٠.

إلـى هذه الدرجة قد يصل الإنسـان في صلافته ووقاحته فلا يتعظ، ولا يأخذ الدروس من جنازة نظيره.

الحياة نعمة كبرى

وعلـى هذا فإن نعمة الحياة هي النعمة الكبرى علينا، فلنهتم بها، ولنعرف قيمتها وقدرها مادامت الأنفاس تجري في صدورنا. فلنحمد اللّه، ونحسـن عبادته مادمنا ندبُّ فوق هذه الأرض، وغير راقدين تحت التراب، هذا الرقود الذي لا ندري هل سيطول سنة أم قرناً أم دهراً كاملاً، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[1].

كـم هـي الروايات المُخبرة عـن الغيب التـي تُنبِّهنا وتدعونا إلى حقائق الموت، وكم هي رسل الموت إلينا تدعونا لأن نُحسن الحياة في هذه الدنيا، بأن نسلك سبيل الصلاح والإحسان، وعمل الخيـر فيها، ولكنك كثيراً ما تجدنا مغرورين لا ينفع النصح والعبر والمواعظ البالغة معنا، وهذه هي الغفلة الكبرى التي نعيشها.

وفي يوم القيامة وبعد السـنين المديدة من الرقود تحت هذه الأرض نُوقَـظ ونصحـو على النـدم الذي ما بعده نـدم، لذلك كان يوم الندامة والحسرة من أسماء يوم القيامة، حيث يندم الكافر ومن شدة ندمه وحسرته يعضّ على يديه قائلاً: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾[2].

(١) سورة النمل، آية ٦٥.

(٢) سورة النبأ، آية ٤٠.

فلنغتنم الفرص الآتية إن كانت الماضية قد فاتتنا، ولنغتنم قلب الليالي، ولنستيقظ فيها ساعة نُصلي ركعات من أجل رضا اللَّه سبحانه، وَلْنُناجِهِ بالدموع الذارفة تحت ظلال الرحمة الإلهية الوارفة.

ولو علم المؤمن كم هي فوائد صلاة الليل، وعوائدها الخَيِّرة على الإنسان من طول عمرٍ وسعة رزقٍ ونورانية وجهٍ وانفتاح قلبٍ وصحة بدنٍ ومن ثم نور يكاد يضيء ظلمة القبر.. وما إلى ذلك من الفوائد التي لا تُحصى لما فوّت ليلة واحدة دون قيام ودعاء وتهجُّد.

ألا يجدر بنا أن نقوم ساعة في جوف الليل نُصلي فيها ركعات، وندعو لإخواننا المؤمنين، في حين ترانا نُطيل السهر، ونقضي الساعات في الأحاديث الفارغة والأعمال العبثية.

إن أعدى أعداء الإنسان هي نفسه التي بين جنبيه، ولذلك فالأجدر بنا أن نستغل شبابنا قبل هرمنا، فليسلك كل منا طريق العبادة، وسبيل الصالحات مادمنا في زهرة شبابنا. فاللَّه سبحانه يحب الشاب إذا كان خاشعاً له خائفاً منه يتقي عذابه، ويرجو ثوابه.. فلنرجع إلى اللَّه، ولنتضرع إليه. فهذه الفتن والمحن والبلايا التي يمتحننا اللَّه، ويمحصّ قلوبنا بها، إنما تهدف التقرب إليه -تعالى- بالخشوع والخضوع.

فلابد للإنسان من أن يتوجه إلى ربه كي يُنوِّر قلبه، ويجلوه

مما فيه من الأكدار. ولكي يُطهِّر نفسه وذاته من الأدران الدنيوية، والأهواء الخبيثة التي تقوده إلى النار، ولكي يطمئن ضميره. فالقلوب التي تطفح منها الاحقاد والعصبية والضغائن لا تفلح، ولا يمكن أن يوفّق أصحابها لأن كل واحد منهم يدعو إلى حزبه وجماعته.

ولكي تفلح القلوب وتتنور وتُوفَّق لابد من أن تتنور بنور اللّه من خلال مخافته واتقائه، كما يشير إلى ذلك الدعاء الشريف: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خُشُوعَ الْإِيمَانِ قَبْلَ خُشُوعِ الذُّلِّ فِي النَّارِ**»[1]، فنسأل اللّه تعالى أن يُعطينا ويرزقنا هذا الخشوع لنُغيِّر به أنفسنا بعد أن فشلنا في تغييرها بالوسائل الأخرى.

شكر النعم أساس الحياة الفاضلة

فَلْنَحْيَ حياةً طيبةً من خلال إزالة الحجب التي تحول دون رؤيتنا للنعم الإلهية.

وفي هذا المجال رُوي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عِنْدَ عَائِشَةَ لَيْلَتَهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تُتْعِبُ نَفْسَكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟

فَقَالَ: **يَا عَائِشَةُ، أَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً**»[2].

---

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٥٩٨.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٥.

وكذلـك رُوي عـن الإمام جعفـر الصادق عليه السلام، قـال: «إِنَّ رَسُـولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ فِي سَـفَرٍ يَسِـيرُ عَلَى نَاقَةٍ لَـهُ، إِذَا -بِهِ- نَزَلَ فَسَـجَدَ خَمْـسَ سَـجَدَاتٍ. فَلَمَّا أَنْ رَكِـبَ قَالُوا: يَا رَسُـولَ اللَّهِ، إِنَّا رَأَيْنَاكَ صَنَعْتَ شَيْئاً لَمْ تَصْنَعْهُ؟

فَقَالَ: نَعَمْ، اسْـتَقْبَلَنِي جَبْرَئِيلُ عليه السلام فَبَشَّـرَنِي بِبِشَـارَاتٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَسَجَدْتُ لِلَّهِ شُكْراً، لِكُلِّ بُشْرَى سَجْدَةً»[1].

وبينما تجد هناك من يجلس على مائدة فيها ما لذَّ وطاب من الطعام، لكنك تراه يجلس متوتر الأعصاب قلقاً يفكر في مصالحه الدنيويـة، فتجـده يركـض وراء هـذا السـراب وإذا به يسـقط فجأة لتنتهـي في تلـك اللحظة وتنهـار كل آماله وأحلامه، فيغـادر الدنيا ولَمَّـا يعـرف الطعم الحقيقـي للحياة، لأنـه كان يعيش قلـق الدنيا ويلهث وراء سرابها.

إذا أردنا أن نعرف معنى الحياة ونعيش معها ينبغي علينا حين تداهمنا الهمـوم والغموم أن نعتبر بالدنيا ونعرف قيمتها من خلال بعض الممارسات من مثل زيارة القبور والمستشفيات.. فلننظر إلى المرضى وخاصةً أولئك الذين قضوا سنين في الأسرة لا تغادرهم العلل، فلننظر إليهم، ولنتعرف على أحاسيسـهم، سـنجدهم كيف يتمنَّـون أن يعيشـوا ولـو ليـوم واحد سـالمين معافيـن كالآخرين، وحينئذ سنحمد اللَّه ونشكره على نعمة العافية والسلامة، ولنعرف

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٩٨.

قيمة حياتنا. فلا نكن عبيداً لهذه الدنيا، وغرضاً لها، وآلة مسخرة لخدمتها.

نحن نرى الكثير من الناس يعيشون هوامش هذه الحياة، ولا يتفاعلون مع جوهرها، فتراهم يبحثون بحثاً مستمراً عن شيء مجهول، في حين أن هناك قضايا أساسية عليهم أن يعيشوها، ويعملوا من أجلها، ومن ضمن هذه القضايا المهمة ولاية أهل البيت عليهم السلام التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1].

علينا أن ندرس ونتفهَّم حياة أئمتنا عليهم السلام بأجمعهم، وأن نتصفح تاريخهم الوضَّاء وسلوكهم ونهجهم في الحياة، ونتشبع بنورهم البهي، ونُغذِّي أرواحنا بعذب وصاياهم.

فعلينا أن نشكر اللَّه ونحمده على كل نعمة ظاهرها وباطنها، فهناك من النعم ما لا نحسّ بها إلَّا بعد انقطاعها؛ فهذا الهواء الذي نتنفسه هو من النعم الإلهية العظيمة التي قد لا نحس به لدوامه، وهكذا الحال بالنسبة إلى النعم الأخرى التي لا تُعدُّ ولا تُحصى بشهادة قول اللَّه تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[2].

فليتمتع كل منا بملذات ونعم هذه الحياة، ولكن عليه ألَّا يُهمل مسؤولياته وواجباته تجاه ربه، ولنصبر ونتحمل عندما يمسنا

(١) سورة التكاثر، آية ٨.

(٢) سورة النحل، آية ١٨.

الضيق برحابة صدر، فلا نجعل الكآبة والحزن طابعاً لنفوسنا تظهر ملامحه على وجوهنا، فهو نوع من الكفران بأنعم اللّه سبحانه.

حذار من الخلط بين الدين والخرافات

وقد بعث النبي ﷺ لتحقيق أهداف رسالية عظيمة منها معالجة هذه الناحية في حياتنا وهي عدم الخلط بين الدين والبدع والخرافات. فنحن نرى أن بعض الناس قد خلطوا الدين بالخرافة والوهم والعجز والضعف والتخلف فينسبون هذه الأمور السلبية إلى الدين وهو براء منها، فتراهم خاملين كالموتى، لا يعملون ولا يتحركون ولا يسيحون في الأرض.. بل تجدهم منزوين عن هذه الدنيا في زوايا هي أشبه بمقابر الأحياء، فهم يتخذون هذا الأسلوب في الحياة باسم الدين والتعبد، وحاشا للدين الحنيف أن يدعو إلى هذا الأسلوب وهو يصرح: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فليس لك أن تتقاعس وتنزوي في ركن من الأركان، وتدَّعي أنك تتفرَّغ للعبادة تاركاً النشاط والعمل والبذل والعطاء، ثم تدَّعي بعد ذلك أنك اخترت الآخرة على الدنيا. في حين أن رسول اللّه ﷺ يقول: «الْفَقْرُ سَوَادُ الْوَجْهِ فِي الدَّارَيْنِ»[2]، وقال ﷺ:

---

(١) سورة الأعراف، آية ٣٢.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ المجلسي، ج٦٩، ص٣٠.

«نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الْغِنَى»[1].

أفلا يعلم مثل هذا الإنسان الاتكالي المتقاعس أن الأنبياء والأوصياء كانوا يعملون ويكدُّون ويأكلون من عرق جباههم، وكانوا يضعون نصب أعينهم تقدم الأمة وازدهارها، فما الذي يا ترى يمنع أحدنا من أن يملك الملايين بالحق والحلال بعد أن يُؤدِّي ما عليه من حقوق اللَّه والناس؟!

رُوي عن ابن أبي يعفور أنه قال: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: «إِنَّا لَنُحِبُّ الدُّنْيَا.

فَقَالَ لِي: تَصْنَعُ بِهَا مَاذَا؟

قَالَ: قُلْتُ: أَتَزَوَّجُ مِنْهَا، وَأُنْفِقُ عَلَى عِيَالِي، وَأُنِيلُ إِخْوَانِي وَأَتَصَدَّقُ.

قَالَ لِي: لَيْسَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا هَذَا مِنَ الْآخِرَةِ»[2].

هذا على صعيد الاقتصاد والاجتماع، أما على صعيد السياسة والنظام السياسي، فإن شئت أيها الحاكم أن تكون دولتك قوية تمتلك السلاح القوي لتدافع عن وجودها واستقلالها، وأن يكون لها اقتصاد راسخ وزراعة مزدهرة وصناعة متطورة، فهذه أمور مستحسنة ومطلوبة وتُثاب عليها عند اللَّه تعالى. أما أن تسلب من

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٥، ص٧١.

(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١٣، ص١٦.

الأمة حقوقها وتهدر ثرواتها، وتستنزف إمكاناتها وطاقاتها.. فهذه أمور دنيَّة تُدان عليها في الدنيا أولاً، وفي الآخرة سيكون بانتظارك أشد العذاب والانتقام الإلهي.

أليس من الأفضل لو أنفقت كل هذه الثروات والأموال والإمكانات والطاقات العظيمة في تطوير الزراعة والتنمية ليسعد أبناء الأمة، ولا يبقى هناك فقر ولا جوع ولا مرض ولا جهل؟

فلا ضير -إذن- أن تجمع بين الدين والدنيا: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وهذا هو هدف من أهدافنا الكثيرة في الحياة.

الغلو في الدين مرفوض

وهناك جوانب سلبية أخرى يتصف بها بعض الذين يدعون الالتزام الديني، فكثيراً ما نجدهم لا يعتنون بمظهرهم، ولا بنظافة أجسامهم، متذرعين بأنهم من أهل الآخرة لا الدنيا! وكأنهم لم يسمعوا يوماً بالحديث النبوي المعروف عند كل المسلمين: **«النَّظَافَةُ مِنَ الإِيمَانِ»**[2] و **«الإِسْلاَمُ نَظِيفٌ فَتَنَظَّفُوا، فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إِلَّا نَظِيفٌ»**[3].

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٠١.

(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١٦، ص٣١٩.

(٣) المعجم الأوسط، الطبراني، ج٥، ص١٣٩.

إن من مصائبنا نحن المسلمين أن فينا أناساً خلطوا أفكارهم ومعتقداتهم الرجعية المتخلِّفة التي ما أنزل اللَّه بها من سلطان بالدين ثم ادَّعوا أن هذا هو الدين الإسلامي!

وهذه الفئة ذات التفكير السلبي المتخلِّف لم تظهر حديثاً، ولم تكن مقتصرة على حقبة الإسلام؛ فاليهود بالأمس حرَّموا على أنفسهم الكثير مما أحله اللَّه تعالى لهم، كما أن النصارى فاقوا من كان قبلهم حتى كادوا أن يحرموا كل شيء، فهم الذين ابتدعوا الرهبانية التي تجعل كل ما يتعلق بالحياة حراماً لا يحل لهم، فاتخذوا الانزوائية والانطوائية وحرمان النفس والجسد تحت يافطة الرهبنة والتعبد للّه زوراً وبهتاناً، حتى ترى أن أحدهم يفتخر أنه أحسن من كل راهب لأنه لم ير الحمام منذ ثلاثين عاماً!

ولذلك فإن القرآن الكريم يستنكر عليهم مواقفهم وسلوكهم المنحرف هذا قائلاً: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[1].

ثم ينبههم بعد ذلك إلى انحرافاتهم وأخطائهم حين يُبيِّن لهم الحكمة من بعث الرسول ﷺ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ

(١) سورة المائدة، آية ١٤.

مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾[1].

فبعد أن حرَّف اليهود والنصارى التوراة والإنجيل عن مقاصدهما وأهدافهما الرسالية جاءهم الرسول ﷺ لينهاهم عن هذا التحريف، وليوجههم التوجيه الرسالي الصائب، حيث بيّن لهم ﷺ خطأ تفسيراتهم، ونبّههم أيضاً إلى أن الكثير مما يعتقدون بحرمته إنما هو حلال طيّب، ولذلك سُمِّيت الشريعة الإسلامية بـ«الشريعة السمحاء» لأنها شريعة التسامح والحب والعفو، وهدفها إشاعة المحبة والوئام والسلام والأمن بين الأمم.

نريدها حياة طيبة

ثم يضيف ربنا سبحانه قائلاً: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2].

والسلام هنا هو السلام في كل آفاقه وأبعاده. فدعوتنا إلى هذا الدين إنما هي مسعى خير نريد به إزالة الطغاة عن كراسي الظلم والبغي والتسلط باسم الحكم وإدارة النظام، ذلك لأنهم يحولون بين الناس وبين معرفة طعم هذه الحياة والتمتع بها بالحلال.

(١) سورة المائدة، آية ١٥.

(٢) سورة المائدة، آية ١٦.

نحن لا نريد أن تكون الحياة مظلمة في عيون الناس، ولا ندعو إلى ترك الحلال والطيبات من الرزق، إنما نريدها حياة حقيقية طيبة يحيونها في ظل السعادة والخير والرفاه والسلام.

إننا نريد أن نعيش الروح الإيجابية المتفتحة، نريد أن نعيش الانطلاقة لكي نُصَحِّح المسيرة، لذلك فإن الإنسان الذي ينظر إلى الحياة نظرة التشاؤم والسخط وعدم الارتياح، ولا يشغل باله بغير السلبيات، مثل هذا الإنسان لا يُمكنه أن يتحرَّك ويتقدَّم في طريق الصلاح والإصلاح.

وكل هذا يدعونا إلى أن نتحمَّل مسؤوليتنا بأنفسنا قبل أن يُنبِّهنا الآخرون عليها، ولنُربِّي أنفسنا على الصبغة الدينية الخالصة، ولا نجعلها حبيسة الأفق والتفكير السياسيين؛ فهدفنا هو حمل الدين إلى السياسة لا العكس. نحن نريد إصلاح السياسة بالدين. وللأسف فإن هناك من يدخل عالم السياسة بغية إصلاحه. ولكن السياسة تستحوذ عليه فتفسده من خلال إفساد دينه.

فلنكن سياسيين نحمل إلى عالم السياسة رسالة الدين، وروحه المُؤطَّرة بالتقوى والعمل الصالح، ولا ننسى أن نُذكِّر أنفسنا بأننا مؤمنون نساهم في حمل أعباء الرسالة إلى أمتنا والأمم الأخرى، وما نستهدفه هو رضوان اللّه تعالى وثوابه في الآخرة، فلنتذكر ذلك في كل عمل ونشاط نمارسه، وفي أية ظروف أو مرحلة كانت.

ولننظر أولاً إلى قيمة كل عمل أو مهمة تُوكل إلينا ثم لنجعلها على محك الدين، ولنُدقِّق النظر فيها لئلا يكون فيها ما يقود إلى الانحراف والفساد والاعوجاج، ثم علينا أن ننظر كم هو تأثير هذا الانحراف والاعوجاج وهل يمكن تلافيهما بصورة أو أخرى.

لابد لنا من التمعُّن في هذه الأمور الخطيرة ثم بعد ذلك نستطيع أن نباشر عملنا وجهادنا وأنشطتنا.. فلنُقدِّر الوضع جيداً، ولنتكاتف ونتواصل ونتراحم، ولنُعِنِ الضعفاء ونساعد الفقراء.. فإن في هذه الأعمال دفعاً للبلاء عن أنفسنا، ومدًّا في أعمارنا، وعافية وسلامة في ديننا ودنيانا.



القسم الثاني

حقائق



آفاق الوعي

لكي يسمو الإنسان المؤمن ويرتفع إلى مستوى وعي وإدراك القرآن، وفهم الحياة التي أرادها ورسم خطوطها هذا الكتاب المجيد، فلابد أن يعرف أن هناك آفاقاً ثلاثة يتحرك في سُمُوِّه من خلالها، وهي أُفق التاريخ، وبعده أُفق الطبيعة، ومن ثم أُفق الإنسانية.

١- أفق التاريخ

ويعني أُفق التاريخ أن على الإنسان أن يغوص في رحاب الزمن المنقضي، ويلمس بوجدانه وأحساسيه تجارب الماضين، وأن يستفيد وينتفع منها؛ فلا يقتصر على تجاربه الذاتية، وعدم الاقتصار هذا من شأنه أن يزيد اعتباره من السابقين. وهذه الميزة هي من الفوارق الرئيسية التي تفصل الإنسان وتُميِّزه عن أي كائن آخر. فالحيوان كائن غير ناطق، ولا يملك لغة التفاهم لكي يوصل ويوضّح تجاربه لنسله، فلو افترضنا أن الحيوان يستطيع اكتساب

التجارب، فإنها سوف تنتهي وتضمحل بانتهاء واضمحلال هذا الحيوان.

ولكن الأمر عند الإنسان يختلف تماماً، فقد مَنَّ اللَّه تعالى عليه بالنطق، وقدرة الإيضاح والبيان، وبالتالي فإنه يتوارث التجارب المنتقلة إلى الأجيال المتعاقبة عبر نافذة التاريخ.

وفي القرآن الكريم نلحظ ونلمس قيمة تلك التجارب والعبر التي ينقلها إلى وجداننا هذا الكتاب السماوي الخالد، ولعل هذه التجارب والقصص والعبر احتلت ثلث هذا الكتاب الإلهي، ففيه نقرأ ونعيش تجارب الماضين؛ قصص إبراهيم ونوح عليهما السلام، ومن قبلهما آدم عليه السلام، ومن بعدهما موسى وعيسى عليهما السلام، والعشرات من الأمم وأنبيائها وتجاربهم وصراعهم المرير في هذه الحياة.

ففي القرآن الكريم الكثير من الآيات المباركة التي تشير إلى هذه الحقيقة، وتدور حول محورها، فتخاطبنا بأنواع الخطاب مرة بـ«يا بني آدم» وأخرى بـ«يا أيها الناس» وثالثة بـ«يا أيها الذين آمنوا» وهكذا.

كل تلك الآيات وغيرها تتوارد في القرآن الكريم وملؤها توجيه وإرشاد الإنسان وإفادته بالعبر من الأمم الغابرة والعصور السالفة.

إن الأمة التي تتغافل عن تاريخها، ولا تتفحص جذوره، ليست أمة أصيلة. فالإنسان الذي يعيش منعزلاً دون أن يأوي

إلى كهف التاريخ فإنه سيتهاوى ويضمحل، والإنسان المؤمن الذي يطمح لأن يُضحي إنساناً رسالِيًّا يُواصل الصعود على سُلَّم التكامل، ويستهدف صنع الانتصار فوق ثرى هذه الأرض، هو الذي يحيا ويعي آفاق التاريخ الشماء.

٢- أفق الطبيعة

أما أفق الطبيعة فنعني بها أن تعيش في هذه الطبيعة وتعايشها، فلابد للإنسان من معايشة الأرض وما فيها وما يَدُبُّ عليها، فانت لست وحدك الذي تستفيد من شعاع الشمس، وتستضيء به، وليست وحدك تتمتع بنور القمر، وتهتدي بالنجوم، وتنال مما تُنبته الأرض مأكلاً ومشرباً وملبساً. فحولك تعيش المخلوقات الأخرى، ويجب عليك أن تتكيف معها كي تحيا حياة طيبة.

وربما يدخل في نفسك شيء من الاندهاش والعجب حين أقول: أنْ لابد لك من أن تكنّ الحب لكل تلك المخلوقات من النملة الصغيرة وحتى أغرب مخلوق لا يخطر على ذهنك. فلابد من أن يعيش الإنسان روح المحبة والود لكل مظاهر الطبيعة، ذلك لأن اللّه تعالى هو الذي خلق وأبدع ما في السماوات والأرض، وجعل كل هذه الخلائق في خدمة الإنسان الذي فضّله اللّه عليها، فأضحت كلها مُسَخَّرة له.

ومما يذكر في هذا المجال: «سَأَلَ أَبُو كَهْمَسٍ أَبَا عَبْدِ اللّهِ (الإِمَامَ جَعْفَراً الصَّادِقَ) عليه السلام، فَقَالَ: يُصَلِّي الرَّجُلُ نَوَافِلَهُ فِي

مَوْضِعٍ أَوْ يُفَرِّقُهَا؟

فَقَالَ: لَا؛ بَلْ هَاهُنَا، وَهَاهُنَا، فَإِنَّهَا تَشْهَدُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1].

فكل بقعة وطأتها رجلاك تأتي يوم القيامة لتكون شاهدة لك وعليك، وإن على عاتقك مسؤولية تجاه هذه الأرض، فكل ما في الحياة له قدر من الوعي والشعور.

إن الراسخ في أذهاننا أن الجماد لا يفهم ولا يشعر؛ فالصخور والجبال وربما حتى بعض الأحياء كالنبات، نعرف أنها لا تفهم ولا تدرك شيئاً من عالمها البسيط المحدود، ولكن الأمر أعمق من ذلك بكثير، فكل هذه الجمادات تتمتع بنوع من الأحاسيس والإدراك غير الذي نعرفه، ولها نوع من الشعور لا يمكن أن نُدرك كُنْهَهُ، لأن عوالم وعيها غير التي عندنا، ولا يمكننا أن نفقه تلك العوالم بتجاربنا وأحاسيسنا مهما تطورت وتقدمت.

قال الله سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[2].

فكل شيء -إذن- له قدر من التوجه، وفي القرآن الكريم نرى في بعض إشعاعاته المباركة هذا المعنى، فالله سبحانه يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[3].

---

(١) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٣٤٣.

(٢) سورة الإسراء، آية ٤٤.

(٣) سورة سبأ، آية ١٠.

فهذه الرواسي كانت تُردِّد مع النبي داود عليه السلام تسبيحه. وهذا المعنى ما لا تتقبّله عقول أولئك الذين تعلموا العلوم السطحية في هذه الدنيا، والذين لا يؤمنون بما وراء الغيب، وإنما يدركه أولئك الذين أوتوا الهدى والبصيرة.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُجسّد هذا المعنى في أقواله، وأفعاله الكريمة؛ فقد كان يعطي لكل حاجة من حاجاته اسماً كفرسه، وبغلته، وثوبه، وعمامته.. وهكذا الحال بالنسبة إلى أئمتنا عليهم السلام؛ فالإمام زين العابدين عليه السلام كانت له ناقة، حج واعتمر عليها طيلة عشرين عاماً، فما أفزعها يوماً بصوت ولا ضربها.

وربما قد يتخذ البعض منا موقفاً معادياً وكارهاً للأشياء، وهذا من تعاستهم وشقائهم، فهم يودون دمار الأشياء وفناءها، أو أنهم قد يُسرفون في استهلاك بعض الحاجيات ويُتلفونها تبذيراً وبطراً وإسرافاً، في حين أن علينا -انطلاقاً من المبدأ الذي ذكرناه- أن نضع لكل شيء قيمته وثمنه، وأنه لمن حسن طباع الإنسان وخاصة الإنسان المؤمن احترام النعم، وتقدير الخيرات.

وعلى هذا فلابد أن نتعامل إيجابيًّا مع الأشياء، ونتفاعل معها بمحبة وانسجام. فكل ما في هذه الطبيعة هو لخير ونفع ابن آدم، ففيها ما يبعث على معرفة الله تعالى ويُعزِّز الإيمان الذي فيه ذروة السعادة والاطمئنان.

وكثير من الاختراعات والإبداعات يتوصل إليها من خلال

دراسته لهذه الطبيعة، واستفادته من ظواهرها. فالطائرة -مثلاً- اكتشف الإنسان سِرَّها من خلال الطير، وهكذا بالنسبة إلى الكثير من الاكتشافات. وبيت العنكبوت الذي ضرب القرآن به مثلاً في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[1]، هذا البيت أبدعت فيه يد الخالق جلّ وعلا، فجعلته في أحكم هندسة، ومن هذه الهندسة التي أوحاها الخالق لهذا المخلوق، تعلم المهندسون والعلماء مد الأسلاك الكهربائية، وإقامة أبراج الضغط العالي. فالإنسان هو تلميذ الطبيعة وآفاقها.

٣- أفق الإنسانية

الذين يتحركون ويعملون ويتنفّسون ويشعرون يبلغ عددهم اليوم على وجه الأرض أكثر من ستة آلاف مليون، إنهم يشتركون في صفة الإنسانية، فلا يُمكن لأي واحد منهم أن يحصر اهتماماته في ذاته أو عائلته أو حتى في إطار مجتمعه.. فهذا الامتداد يجب أن يمتد إلى كل أفق يحيا في نطاقه إنسان، خصوصاً أولئك الذين يعيشون هموم الحياة، ويُعانون آلامها ومصاعبها الجمة، وأعني بذلك المظلومين والمضطهدين والجياع في كل ناحية من نواحي هذه الأرض المترامية، ثم إن لهؤلاء أيضاً عقولهم ومداركهم وتجاربهم فيمكنك الإفادة منهم انطلاقاً من كونهم أبناء جنسك.

وهكذا لابد أن تعرف ما حولك، وتتصل بشتى المجتمعات،

(١) سورة العنكبوت، آية ٤١.

وتتابع أخبارها.. فليس من الصحيح أن نتذرَّع في هذا المجال بأن اهتمامنا يجب أن يقتصر على بلدنا ومجتمعنا، بل يجب أن نتفاعل قدر استطاعتنا مع المجتمعات والأمم الأخرى بالإضافة إلى مجتمعنا وأمتنا.

وفي هذا الصدد يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْعَالِمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِس**»[1]. ويريد الإمام عليه السلام بذلك أنك تعيش ضمن حياة معينة، ولابد لك من أن تكتشفها، وأن تعرف العصر الذي تعيش فيه، والانتفاع من تجاربه.

لقد شيِّدت الحضارة الأولى على أسس الوحي الإلهي الهابط من السماء نقيًّا صافياً، ومع ذلك يحثُّ رسول الله صلى الله عليه وآله على المعرفة وأخذ العلم والاعتبار من الغير.

وقد قال صلى الله عليه وآله في هذا المجال: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَطْلُبُ فِيهِ عِلْماً سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِهِ، وَإِنَّهُ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحُوتِ فِي الْبَحْرِ**»[2].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُمَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ ضَالَّتَهُ فَلْيَأْخُذْهَا**»[3].

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص٢٦.

(٢) بحار الانوار، الشيخ المجلسي، ج١، ص١٦٤.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص١٦٧.

والإنسان المسلم يمر اليوم بمرحلة حساسة في هذه الفترة الزمنية، فربما نكون غافلين عن أحداث ووقائع تحدث في بلد من البلدان القريبة أو البعيدة، وقد تقول: وما شأننا بهذا البلد أو ذاك؟

كلا؛ بل لك شأن بها، وهي تهمُّك، وترتبط بقضاياك المصيرية. فالحدث الذي يقع في أي موضع من العالم قد ترى تأثيره المباشر والسريع في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية، وذلك بفضل وسائل الاتصال السريع الذي يتمتع به العالم المتحضر اليوم.

في هذه الحالة لا يمكننا أن نسكت ونقول: إن هذا أمر لا يعنينا. فموقف كهذا مرفوض أشد الرفض؛ لأن الأرض التي نعيش عليها هي بمثابة سفينة، والإفساد فيها هو بمثابة خرق لها، وعندما تخرق هذه السفينة فإن أحداً سوف لا يسلم من الغرق والموت، بل الجميع سوف يصبح عندئذ مُهدَّداً.

فلنعرف موقعنا اليوم، والحالة التي نحن عليها. علينا أن نعرف ذلك، وأن نعرضه على التاريخ، ونقارنه به، كي نستفيد من إيحاءات هذا التاريخ، ومن القيم والقمم الشامخة التي تبرز بين ثناياه، تلك التي نراها واضحة بَيِّنة عندما نتصفَّح كتاب اللّه المجيد، فنستوحي منها هدى وبصيرة نافذة، لنُصحح عندئذ مسيرتنا، ونستثمر طاقاتنا في الطريق السوي.

وعي الغيب

بين المنهجية التي يتَّبعها الإنسان المؤمن، وتلك التي ينتهجها الآخرون، مسافة بعيدة. فالمؤمن إذا ما أبصر ظاهرة، وتعامل مع حدث، فإنه يَكِلُ تفسيرهما إلى ظواهر وأحداث أخرى متصلة بهما. في حين أن نظرة الآخرين للظواهر والأحداث هي نظرة غير متكاملة، لأنهم يفصلون بين الظواهر، فيقفون عند حد معين.

الفكر التجزيئي يحجب الحقائق

ومن الواضح أن الفكر التجزيئي نابع من الفكر المُتخلِّف، لأنه ينظر إلى أي شيء بمعزل عن ارتباطاته بالأشياء الأخرى. وعلى سبيل المثال؛ فعندما ينظر الإنسان المُتَّبع لهذا الفكر إلى ثمرة ما، فإن نظره هذا ينحسر في إطار الثمرة ذاتها أو يتجاوز ذلك قليلاً، كأن يعرف أن هذه الثمرة هي من نتاج شجرة معينة، دون أن يُبصر ما وراء ذلك من سلسلة مراتب تنتهي إلى فكرة الغيب الذي

يمد الكائنات بالروح والحياة.

وفي إطار ذلك الفكر الشامل يجب أن نفكر في ذلك الروح الذي جعل الكون بهذا التناسق العجيب؛ فمن هو ذلك القوي العزيز الجبَّار الخالق المُصوِّر الذي قدَّر فهدى، والذي أنشأ كل شيء، وجعل هذه الحياة ممكنة بعد أن مكَّن الإنسان من سبر أغوار الكون اللامتناهي عبر تلك الأجهزة الدقيقة التي تستطيع أن تلتقط وتحلل الإشارات الضوئية وهي على بعد ملايين السنين الضوئية؟

ومن خلال درك هذه الحقائق الكبيرة لا يتسنى للإنسان إلَّا أن يُؤمن بأن وراء كل ذلك نظاماً، إذ من المستحيل أن يقوم كل ما نراه صدفة ومن دون مدبر، أو أن نتصور هذا النظام دون منظم.

التفكير الشامل نتاج الإيمان

إن المؤمن ينفذ ببصيرته إلى هذا المدى البعيد، بينما تتوقف بصيرة الآخرين عند حدود الشهود، ولو فهمنا هذه الحقيقة لانفتحت أمامنا أبواب المعارف والعلوم على مصراعيها، ولا يكون ذلك إلَّا عبر الإيمان الذي يدفع الإنسان صوب التكامل. وهذا لا يمكن إلَّا عندما ينفذ المؤمن ببصيرته إلى رحاب الغيب.

وإلى هذه النقطة المهمة يوجهنا اللَّه تعالى في محكم كتابه الكريم من أجل أن يعرف كل إنسان قدر نفسه دون أن يتجاوز حده بالتطاول على القدرة الإلهية، كما يقول: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[1].

وقد يخطئ البعض في نظرته لمسألة الخلق، فيتصوَّر أنها قد تكون ضمن إرادة الإنسان. وهذا عين الخطأ، لأن مثل هذه النظرة تفضح عن محدوديتها، لأنها تحجب عن الإنسان فهم أساس الخلق وحقيقته.

وكما أن الخلق راجع إلى الله تعالى، فالموت كذلك بشهادة قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وهكذا الحال بالنسبة إلى مرحلة ما بعد الموت، فهي الأخرى من شأن الله العزيز الجبار. وباختصار فإن كل القضايا التي لها صلة بالغيب إنما هي خاصة بالله تعالى، والإنسان يعجز عن كشف سرها.

أضف إلى ذلك أن عملية القدرة على الخلق الإلهي لا تنحصر في كائن معين كالإنسان، وإنما تشمل الكائنات كلها بصورة مطلقة، لذلك يُعقِّب ربنا سبحانه بالقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾[3].

(١) سورة الواقعة، آية ٥٧ - ٥٩.

(٢) سورة الواقعة، آية ٦٠ - ٦٢.

(٣) سورة الواقعة، آية ٦٣ - ٦٥.

إرادة اللَّه هي الأساس

ومن هنا يتبيّن لنا أن إرادة اللَّه هي الأساس. فعلى الرغم من كل مساعي الزُّرّاع في تهيئة الأرض، ونثر البذور، ومتابعة سقاية الأرض.. إلّا أن مشيئة اللَّه في إثمارها أو عدم إثمارها تبقى هي المقررة.

ثم يشير اللَّه تعالى بعد ذلك إلى المطر فيقول: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[1].

فلولا المطر لاستحالت الحياة في معظم بقاع العالم إن لم نقل على الأرض كلها. ولا يخفى أن هذه الرحمة مُسيَّرة بإرادة اللَّه، فيصيب بها من يشاء، ويحرم منها من يشاء.

ولعل من أبرز وجوه الرحمة الإلهية في المطر، أنه -تعالى- لم يجعله أُجاجاً، بل جعله شراباً سائغاً يروي العطشان.

ثم يُبيِّن اللَّه سبحانه بعد ذلك آية أخرى من آيات الخلق في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[2].

---

(١) سورة الواقعة، آية ٦٨ - ٧٠.

(٢) سورة الواقعة، آية ٧١ - ٧٥.

فحتى النار التي هي إحدى أساسيات الحياة، إنما هي واحدة من المخلوقات الإلهية.

فما مرّ ذكره لم يأتِ إلّا تذكرة لمن انشرح قلبه للهدى، لكي ينتبه ويُفكّر حتى يصل بنفسه إلى مرحلة معرفة الحقائق التي تقف في مقدمتها حقيقة أن كل الأمور ترجع لله سبحانه وتعالى، ولذلك فمن الواجب علينا التسبيح له.

ومتى ما توصلنا إلى هذه الحقيقة، فحينئذ ستتمكن من ربط القضايا ببعضها بنظرة ثاقبة، وبصيرة هادية، وعندئذ سنكون في هذه الدنيا أسياداً للطبيعة، ونكون في الآخرة ملوكاً في الجنة إن شاء اللَّه.



بين الغيب والشهود

لو تأملنا ونظرنا في مستويات التقدُّم السريع وقفزاته الهائلة لبعض البلدان الصناعية الكبرى لأدركنا مدى تأخرنا وتراجعنا وانحدارنا إلى أدنى المستويات، ولانكشفت لنا هوة المسافة الهائلة بيننا وبينهم.

وعلى سبيل المثال؛ ففي المؤتمر الذي ينعقد في اليابان بين مدة وأخرى لبحث خططهم الاقتصادية العشرينية (لا الخمسية) كما هو معروف عندنا، اجتمع العلماء والمفكرون والفلاسفة بالإضافة إلى خبراء الاقتصاد والصناعة والتجارة ليطرحوا فكرة التباطؤ أو التوقف قليلاً عن مسيرة التطور السريعة وخطواته الكبرى، ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم أنهم إذا ما استمروا على هذا المنوال، فإن العالم لا يمكن أن يستوعب نتائج هذه المسيرة الجبارة. وهذه هي حقيقة ما يجري الآن في اليابان.

وفي أوروبا لو نظرنا إلى ألمانيا -وهي البلاد التي دُمِّرت حضارتها عن آخرها تقريباً خلال الحرب العالمية الثانية- لوجدنا

اقتصادها اليوم بات يُهدِّد الاقتصاد الأمريكي، فقد أضحت ألمانيا القوة الاقتصادية الأولى خلال نصف قرن من الزمان.

أين نحن من ذلك التقدم؟

ترى أين نحن من هذه التطورات الاقتصادية والصناعية الهائلة التي أحرزتها هذه البلدان؟ هل نحن وهم سواء في البشرية؟ وإلى متى نستمر على هذا الحال؟ وهل ضُرِبت علينا الذلة والمسكنة إلى الأبد، أم سيكون لنا مخرج وخلاص من هذه الأوضاع المزرية؟

قبل أن نعطي صورة واضحة عن هذه المعضلة التي نُعاني منها، لابد أن نجيب قبل ذلك على تساؤل آخر يمهد للجواب على تساؤلنا الأساسي، وهو: ترى ما هي سمات الإنسان البدائي المُتخلِّف؟

هناك أقوال وأفكار ونظريات عديدة تتحدَّث عن سمات الإنسان المُتخلِّف والبدائي أو إنسان ما قبل التاريخ والحضارة، ولكن النظرية التي أرى صحتها وتوصَّلتُ إليها من خلال دراساتي في فلسفة التاريخ، وتدبري في الآيات القرآنية التي هي ينبوع المعرفة الإلهية، هي نظرية العلاقة بين الغيب والشهود.

وتوضيح ذلك: أن الإنسان مُركَّب من قوتين هما؛ الجسد والروح. والزمن هو الآخر تُؤلِّفه حقيقتان؛ وهما حقيقة الحضور أو الزمن الحاضر، وتشمل ما هو على جانبي الزمن الحاضر وهما الماضي أو ما كان، والآتي أو ما سيكون. كما أن للأشياء أيضاً ظاهرها وباطنها؛ أي أن لكل شيء وجوداً ظاهريًّا وآخر باطنيًّا.

حقيقتا الغيب والشهادة

وعلى هذا الأساس فإن عالم الوجود برمته يرتكز إلى حقيقتين؛ هما حقيقة الغيب وحقيقة الشهادة، والله تعالى يُحيط بهاتين الركيزتين علمه ومشيئته ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾[1]. والعلاقة بين هاتين الظاهرتين؛ أي الغيب والشهادة في قلب الإنسان، هي التي تُحدِّد فيما إذا كان الإنسان حضاريًا متطوراً أم بدائيًا متخلفاً.

وربما نسأل هنا: كيف يكون ذلك؟

والإجابة عن هذا التساؤل بسيطة، ربما نجدها في صورة مازالت حية موجودة في بعض المناطق النائية البعيدة عن الحضارة. فحتى يومنا هذا هناك في بعض المناطق الاسترالية أو الإفريقية، بل وحتى في أمريكا اللاتينية أُناس ما يزالون يعيشون الحالة البدائية قبل التاريخ! فتراهم يعيشون على الصيد بالطرق القديمة. وكما هي البدائية في ظاهر حياتهم، كذلك هي في أفكارهم ومعتقداتهم وتصوراتهم.

ضرورة فهم قانون العلة والمعلول

إن مثل هؤلاء الناس البدائيين لا يتصورون أن هناك سلسلة من العلل والمعلولات؛ أي يجهلون العلاقة بين الأشياء والترابط

(١) سورة الرعد، آية ٩.

بين الحقائق والأمور، بل يربطون الأشياء والظواهر بأخرى لا علاقة لها بها وهو ما نسميه بـ(السحر) أو (الشعوذة)؛ أي الاعتقاد أن هناك أسباباً غير منظورة وغير معقولة لا يمكن فهمها، معتبرين إياها الأساس الذي إليه تستند حركة الكون.

كل ذلك سببه أن الإنسان الأول لم يكن يعتقد بمبدأ العلة والمعلول، ولا يفهم السنن الإلهية السائدة في الوجود والنظام الكوني، وبالتالي فإنه لا يأخذ بها لجهله إياها، بل يأخذ بمجموعة أوهام وخرافات. وعلى سبيل المثال فإن بعض الناس البدائيين عندما يذهبون إلى البحر ليصطادوا فيجدوه هائجاً، فإنهم في هذه الحالة يتجمعون ليُؤَدُّوا بعض الرقصات المعيَّنة ظانين أنها ستُسهم في تهدئة البحر وتسكينه؛ فيظهر السمك نتيجة لذلك. ولكن ما علاقة الرقص بهيجان البحر؟

وإزاء كل ذلك نرى الإنسان المتحضر يعتقد أن للأشياء حقيقتين هما: الشهادة والغيب من حيث الزمان والمكان، وفي الكائنات الحية هناك الروح والجسد، وفي الطبيعة هناك الوجود المادي المشهود والقوة الكامنة التي تظهر حين وقوع الأسباب والعلل. وكما أن للشهادة قوانينها وسننها الإلهية، كذلك الحال بالنسبة إلى الغيب فهو الآخر له سننه وقوانينه.

باختصار فإن إنسان الحضارة يفهم أن للحقيقة في عالمها وجهين؛ هما الوجه الظاهر وهو الشهادة، والوجه الباطن وهو عالم الغيب، وأن للأشياء في الوجود أُطرها وموازينها ومتعلقاتها،

وهـي تتحرك وفق السـنن الإلهية التي تتحكـم بوجودها وطبيعتها بالإضافة إلى حركتها وتفاعلها.

وعندما نزلت الرسالات السماوية أكّدت بدورها أهمية هذه السـنن. وعلى سـبيل المثال؛ روي عن أبي عبد اللَّه (الإمام جعفر الصـادق) عليه السلام قال: «إِنَّ نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَـاءِ مَرِضَ، فَقَالَ: لَا أَتَدَاوَى حَتَّـى يَكُونَ الَّذِي أَمْرَضَنِي هُوَ الَّذِي يَشْـفِينِي. فَأَوْحَـى اللَّهُ إِلَيْهِ: لَا أَشْفِيكَ حَتَّى تَتَدَاوَى، فَإِنَّ الشِّفَاءَ مِنِّي»[1].

وهذا هو مقتضى السُّنَّة الإلهية في مثل هذه الحالات؛ فالدواء هو من أسـباب الشهادة، والشفاء من أسـباب الغيب، فلا يصح أن نكتفي بالغيب؛ أي الشـفاء الإلهي. ولا يصح أيضاً أن نقتصر على الشـهادة؛ أي أن نتناول الدواء ونتغافل عن الشفاء الإلهي كما يرى ذلـك الماديون الملحدون. فلا بد مـن الاثنين معاً، لأن لكلٍّ دوره وفعله في جوانب الحياة.

وفـي العلم الحديث هناك نظرية مفادها أن لكل سُـنَّة إلهية، ولكل قانون طبيعي هامشـاً في التخلف أو الإخفاق. وعلى سـبيل المثال؛ فإن سُنَّة الثورة تقول: إن الشعب الذي يثور لابد أن ينتصر، ولكـن الواقع المشـاهد يثبت أن ليس كل الثـورات بلغت أهدافها في النصـر. وفي عالـم التجارب والمطامـح العلمية نلاحظ وجود هامش الإخفاق أيضاً كما تؤيد ذلك الشواهد العملية.

---

(١) وسائل الشيعة، الشيخ الحر العاملي، ج٢، ص٦٣.

إن هـذه الظاهرة ليس سـببها طبيعة السُّـنَّة أو القانون الإلهي كأن يوجـد فيه خطـأ أو خلل، بل إنها تحـدث نتيجة عدم الإحاطة الكاملة للإنسان بمتعلقات هذه القوانين، وعدم مراعاة الدقة التامة في حسـاباتها ومعادلاتهـا.. فحدوث الإخفاق أو الفشـل لابد أن يكون سببه وجود نسبة معينة من حالة التخلف عن السير الطبيعي للقانون أو السنة الإلهية.

وقد شـدَّد العلماء على هذه النظرية للتأكيد على دقة التوازن فـي هذا الكون، فالأشـياء فيـه مهما صغر حجمهـا وتضاءل وزنها لابد أن تؤثر في معادلات وقوانين هذا الكون، فإن هي إزدادت أو نقصت أو انعدمت فلابد أن تترك أثرها على الوجود.

دور عالم الغيب

وعلـى هذا الأسـاس فليـس صحيحاً مـا يقولـه الملحدون بانعدام أثـر الدعاء؛ فالمريض -مثلاً- يكفيه الدواء فحسـب لكي يشـفى من مرضه. كلا؛ فإن في النفس الإنسانية فراغات لا تملؤها سوى الإرادة الإلهية، وهذا هو المراد بالتوكل على اللّه تعالى حين العزم، لأن النجاح يتوقف أيضاً على المشيئة والإرادة الإلهية.

والتـوكل هو لون من ألـوان الدعاء الخفي؛ أي أن الإنسـان يمضي في عمله مستمداً اللطف من اللّه تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾[1]. وعلـى هـذا فإن سـير

(١) سورة الكهف، آية ٢٣ - ٢٤.

الوقائع، وتحصل النتائج، وبلوغ الأهداف، كل ذلك يتوقف على أمرين هما:

١ - موافقة السُّنن الإلهية والعمل بها، وهو قوة الشهادة.
٢ - ذكر اللَّه؛ دعاءً أو توكُّلاً أو اتِّقاء، وهو قوة الغيب.

وليس هناك في الحياة ما يُحَتِّم على اللَّه تعالى القيام بفعل ما في هذا المجال. وإلى هذا المعنى أشار الدعاء الشريف الذي يقول: «**وَيَا مَنْ لَا يُبْرِمُهُ إِلْحَاحُ المُلِحِّيْنَ**»[1].

معرفة السُّنن أولاً

وهكذا فإن بلوغ الأهداف لن يكون دون أن نتبيَّن المسلك والاتِّجاه، لذلك كان من الضروري أن نبحث عن السنن الإلهية أولاً، ثم نتحرَّك ونعمل وفق هديها. وإن من أهم أهداف الرسالات السماوية، وبعثة الأنبياء، هو تفجير طاقة التغيير الكامنة في عمق الذات الإنسانية. فقد جاء الأنبياء عليهم السلام ليُطهِّروا الفكر الإنساني من الأدران والأوهام والخرافات العالقة في الأذهان، وليفهموا الإنسان أن هناك سنناً وأنظمة وقوانين جعلها اللَّه تعالى في هذا الوجود.. فكان ضروريًّا أيضاً أن تكون هناك شرائع وأنظمة وقوانين إلهية تنسجم مع تلك السنن الكونية، وتنتظم بها حركة الحياة الإنسانية في المسار المطلوب في شتى مجالاتها من اجتماع وسياسة واقتصاد وثقافة.. وكان لابد للإنسان أيضاً من

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٧٧٧.

تطبيق تلك الشرائع والقوانين التي جاءت بها رسالات السماء كي يتحقق الهدف الإلهي من الوجود الإنساني.

وعلى هذا فإن الأنبياء والرسل إنما أرادوا بما جاؤوا به من عند اللّه أن يخرجوا هذا الإنسان من دنيا الظلمات إلى عالم النور والبصيرة والهدى، ومن الحالة البدائية الساذجة والمتخلفة إلى حالة التطور والتقدم الحضاري.

ما هي مشكلتنا الرئيسية؟

إن مشكلتنا الأساسية في بلادنا نحن المسلمين هي أننا لم نفهم ولم ندرك الأهداف العظيمة للرسالة الإلهية الخاتمة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ، ولذلك لم نستمر في الاحتفاظ بزمام حركة التقدم الحضاري الذي كان بِيَدِ أسلافنا.

وعندما نسأل: ما الذي جعل الثورة الحضارية تنطلق من الغرب؟ يُجيبنا أحد الكُتَّاب الغربيين في دراسة له قائلاً: إن السبب الرئيسي هو الأفكار التي تبنتها الحركة البروتستانتية التي تعني (حركة الرفض)، والتي قام بتأسيسها (مارتن لوثر). وعندما نبحث عن جذور هذه الحركة نجدها مستلهمة من إشعاعات ديننا الإسلامي الحنيف الذي أسأنا فهمه وفهم فلسفته في الحياة، فغدونا اليوم محرومين من هذا الإلهام والنور.

وعندما تسأل الأوروبيين بالإضافة إلى ذلك: كيف خطيتم بكل هذا التقدم العلمي وفي شتى المجالات؟ فسيجيبونك قائلين:

أنـه المنطق الذي جاء به (فرنسيس بيكون)، وعندما تستفسـر عن المنهل الذي نهل منه هذا العالم في علم المنطق، تجده متمثلاً في حضارة الأندلس الإسلامية التي انتقلت إلى أوروبا عبر الفتوحات الإسلامية. فلو تأملت العبارات والمصطلحات التي تبناها المنطق الأوروبـي لوجدتها إسـلامية بحتة. وهكذا انتقل الشـعاع الفكري الإسـلامي إلـى الأوروبيين واسـتثمروه أحسـن الاسـتثمار، بينما ضيَّعناه نحن وعمينا عنه.

وعلى هذا فلابد من النظر والتحرُّك في هذه الحياة من خلال حقيقة ذات وجهين هما: الشهادة، والغيب. فالمآسـي والمشاكل التي نعاني منها تندرج في هذين الوجهين، فهناك أسـباب الشهادة وإلى جانبها أسباب الغيب. فمن الأسباب الغيبية أن الظلم لا يفرز حضارة، بل هو يسبب الدمار والفساد. وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنيـن علي بن أبي طالـب عليه السلام: «**الحَجَرُ الغَصِيْـبُ فِيْ الدَّارِ رَهْنٌ عَلَىْ خَرَابِهَا**»[1].

وللأسـف فإن شـعوبنا غفلت لوهلـة من الزمن عـن حقيقة (العلـة والمعلـول) التي هي فلسـفة الفلسـفات، فقـد غفلت هذه الشـعوب أو ربمـا تغافلـت عـن حقيقـة أن للأشـياء والحـوادث والنتائج أسـبابها ومسـبباتها، وأن للكون نظاماً يُسيِّره فإذا ما اختل اختلت معه موازين هذا الكون وأوضاعه.

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٢٤٠.

ولذلك كان علينا أن نتحرَّك وفق ما تقتضيه سُنن اللَّه وقوانينه، فالحماس لوحده لا يُجدي نفعاً. فقد جاء عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَكْمَلَ مَا فِيْهِ، كَانَ هَلَاكُهُ مِنْ أَيْسَرِ مَا فِيْهِ»[1]. فالحماس والعاطفة اللذان لا يرتكزان إلى أسس قوية فاعلة وتوجيه ومخطط فكري واعٍ، لا يمكن لهما أن يُثمرا ويصلا بصاحبهما إلى النتيجة المنشودة.

وفي هذا المجال قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أَصْلُ الإِنْسَانِ لُبُّهُ، وَعَقْلُهُ دِيْنُهُ، وَمُرُوْءَتُهُ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ»[2].

فالإنسان بعقله وتدبيره وحكمته يستطيع أن يُخطِّط ويعمل ويُنجز.

ونحن عندما تركنا العمل بالحكمة والعقل والمنطق، واعتمدنا مجموعة من الأفكار والأوهام الخرافية البالية التي لا تَمتُّ بصلة إلى الغيب، غدونا حينئذ عرضة للضربات الموجعة والاندحارات المتتالية.. وربما تكون عِلَّة تخلفنا وهزيمتنا أننا نعمل بالأمور في غير محلها وأوانها؛ كأن نعتمد الأمور الغيبية في وقت نحتاج فيه إلى مسالك الشهادة؛ فالصلاة والدعاء وأنواع العبادات كلها أمور صحيحة ومطلوبة، ولكن علينا الإتيان بها في مواقعها وأوقاتها الصحيحة.

---

(١) بحار الانوار، الشيخ المجلسي، ج١، ص٩٤.
(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق، ص٣١٢.

ولكن عندما يتطلَّب الظرف منا أن نحمل السلاح ونخوض غمار ميادين الجهاد، فليس صحيحاً أن نترك هذا الجهاد ونركن إلى زاوية نصلي وندعو فيها ليلاً ونهاراً ونطلب من اللَّه النصر والفتح دون أن نتحرك. وهذا هو المنطق الصحيح، وهو ما تقتضيه السنن الإلهية، وهكذا الحال بالنسبة إلى كل مناحي الحياة.



وعي التجارب

ينظر الإنسان المؤمن إلى الأحداث من خلال بصيرة معينة؛ فالمؤمن يستفيد -من كل ظاهرة طبيعية أو حادثة إنسانية معينة في هذا الكون- تزكيةً لنفسه وتعميقاً لرؤيته، وزيادةً وإكمالاً لعقله..

وهذا منهج فريد يتسم به القرآن الكريم، ويتجلّى من خلاله المؤمن الذي استمع إلى القرآن وأفاد منه منهاجاً وبصيرة ورؤية. ونقصد بهذا المنهج الفريد: السعي لربط الحقائق الكبيرة بالسلوكيات المباشرة في حياة الإنسان.

التجارب التاريخية في القرآن الكريم

وما حدث في التاريخ مما يرويه لنا القرآن الكريم في قصص عاد وثمود وآل فرعون وسائر الأمم.. إنما كان يُمثّل ظواهر كبيرة خلّفت آثارها العميقة في التاريخ. فليس من البساطة أن يهلك اللّه قوماً جبّارين كانوا قد نحتوا من الصخور منازل لهم، ويُمثلون أكبر قوة في الديار التي سكنوها في أطراف الجزيرة العربية؛ فخلال عشية

وضحاها أرسل اللَّه العزيز الجبَّار عليهم ريحاً عاتية، اقتلعتهم من مخادعهم، ورمت بهم إلى آفاق الفضاء الرحب دون أن يبقى منهم أي أثر إلَّا مساكنهم الخاوية، وكأنها لم تُسْكَن من قبل.

وفي الوقت الذي كان فيه قوم هود يُعانون ألم العذاب وهم في طريقهم إلى الانقراض، كان النبي هود عَلَيْهِ السَّلَامُ والمؤمنون معه قد حفروا لأنفسهم حفرة صغيرة، استلقوا فيها دون أن تُؤذيهم تلك العواصف الهُوج، بل تحوَّلت إلى نسيم عليل يستنشقون منه العبق الطيب، بفضل اللَّه تعالى.

وهكذا كان حال فرعون ذي الأوتاد، فهو لم يكن شخصاً بمفرده، وإنما كان يمثل خطًّا تاريخيًّا، فهو كان يمتلك جيوشاً قاهرة حتى قيل: إن جيشه كان يضم سبعمائة ألف إنسان، وهذا عدد هائل إذا ما قورن بعدد سكان العالم آنذاك، ناهيك عما كان يملكه من إمكانات مادية هائلة، ولكن عاقبته كانت الهلاك في النهاية.

هذه الملامح التاريخية غنية المحتوى، عظيمة العبرة، والإنسان المؤمن يستوعب مثل هذه الملامح التاريخية، ويستوحي منها آفاقاً واسعة، لذلك نجد أن الحديث في سورة الفجر يبدأ عن ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾[1]؛ أي عن عاد و ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾[2]. ثم ينتهي الحديث إلى الإنسان،

(١) سورة الفجر، آية ٧.

(٢) سورة الفجر، آية ٩-١٠.

لأن الهدف من كل التحوُّلات والتطورات في التاريخ هو زيادة تجربة الإنسان، وتعميق نظرته إلى الحياة، ومحاولة فهم الحقائق، وبالتالي اكتساب العبر، لأن «العَاقِلَ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ»[1]، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

فعلى الإنسان ألّا يغترَّ بنفسه، وأن يعتبر بمن مضى، وبما جرى. والقرآن الكريم إنما يُحدِّثنا عن قضايا تاريخية، وحوادث هامة وقعت في غابر الزمان، لكي نتعلم كيف نفكر بعمق، وكيف نتبصر بدقة فنتنبه ونعي.

قيمة الإنسان ليست بأمواله

وبعد أن يُبيِّن القرآن تلك الإشارات التاريخية، يقول اللّه عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾[2].

فإذا رأيت الخيرات تنهال عليك من كل صوب، فلا تنخدع، لأن هذه النِّعم قد تكون من جهة الاستدراج، كما يقول ربنا سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[3].

ومن هنا ينبغي على الإنسان ألّا يستبد به الغرور.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص٤٧.

(٢) سورة الفجر، آية ١٥.

(٣) سورة الأنعام، آية ٤٤.

وقد يزعم البعض أنه محبوب من قبل اللّه ما دام غنيًّا، ومثل هذا الزعم باطل، لأن الإنسان قد يحبه اللّه تعالى وهو فقير. فقيمة الإنسان ليست بأمواله، وإنما بعمله وقيمه وإيمانه.

وفي هذا المجال تحضرني قصة لطيفة تقول: إن أحد الإخوة المؤمنين طلب من تاجر يعرفه أن يقرأ معه دعاء كميل في ليلة من ليالي الجمعة، ليتوسلا إلى اللّه أن يوفقهما إلى سبيل الرشاد. فأجابه التاجر بالقول: وما حاجتي بدعاء كميل وأنا أملك أموالاً طائلة. وكأن دعاء كميل قد خُصص للفقراء والمساكين فقط!

ترى هل فكّر هذا الإنسان وأمثاله ولو للحظة واحدة ماذا يمكن أن تفعله له تلك الأموال في الليلة الأولى التي سيقضيها في قبره، وفي يوم الحشر وعند جواز الصراط؟ هل ستدفع عنه المكاره وسوء العذاب؟

ويُصرِّح القرآن الكريم أن هناك أُناساً يقولون: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾[1]، إذا ما حصلوا على أموال طائلة، ولكنهم بمجرد أن يفقدوا شيئاً من أموالهم هذه يصابون بضعف نفسي ويقولون: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾[2]. في حين أن التوجيه الإلهي يكشف لنا أنه لا المال كرامة، ولا الفقر إهانة، فقد يكون المال بلاءً، والفقر ابتلاءً، وكلا الحالتين يمثلان فتنة. فإذا سمحت لك الظروف وخدمتك

(١) سورة الفجر، آية ١٥.
(٢) سورة الفجر، آية ١٦.

فأصبحت غنيًّا، فقاوم غرور نفسك وكبرياءها. وفي الوقت نفسه إذا أحاطت بك الملمات، وصرت فقيراً، فقاوم ضعف نفسك، واصمد في مثل هذه الحالات.

ثم يتحدث السياق القرآني عن ظاهرة اجتماعية بقول الله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾[1].

فاليتيم يجب أن يحظى باحترام المجتمع، ولابد من أن يُكرم على عكس ما يتصوره البعض من أن اليتيم غير جدير بالكرامة، وهذا ما يرفضه الإسلام.

(١) سورة الفجر، آية ١٧.



في يوم القيامة ينهار التكبر والطغيان

ثم يُبيِّن لنا القرآن بصيرة أساسية تتمثل في قول اللَّه تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾[1]. فالأرض التي نعيش عليها، والتي تحمل فوق ظهرها الأموال، تندك دكة واحدة، فتقع الجبال على السهول، وتُسجر البحار، فتصبح الأرض قاعاً صفصفاً، وحينئذ يتحقق قول اللَّه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[2].

ففي يوم القيامة، حينما ينظر الإنسان بحد البصر، يرى عشرات الألوف، بل الملايين من الملائكة. فالأبصار تتسع يوم القيامة بحيث تستطيع أن تشاهد أضعافاً مضاعفة من الأشياء، كما يشير إلى ذلك ربنا عزّ وجلّ: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[3].

وفي هذا اليوم يرى الإنسان ملكوت السماوات والأرض.

---

(١) سورة الفجر، آية ٢١.

(٢) سورة الفجر، آية ٢٢.

(٣) سورة ق، آية ٢٢.

وفي هذا اليوم أيضاً تُلقي نار جهنم بسلاسلها من أبعد مكان وهي تتميَّز غيضاً، وتعلو منها ألسنة النيران المُلتهبة ويومئذ يتذكر الإنسان ويعي أن ماله كان فتنة، وفقره كان فتنة أيضاً، بل وكل مظهر من المظاهر الدنيوية.

ولكن التذكُّر لا يمكن أن ينفع الإنسان الخاطئ في يوم القيامة، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[1]. وحينئذ يندم على تكديسه للأموال دون إنفاق شيء منها في سبيل الله، في حين كان بإمكانه أن يشتري بها الجنة، ويُبعد عن نفسه نيران جهنم وعذابها.

التذكر هو الهدف

وهناك التفاتة لابد من الانتباه إليها، وهي أن الهدف من أحداث الدنيا وتحوُّلاتها وما يجري فيها إنما هو تذكرة الإنسان. والناس إزاء هذه الحوادث على نوعين: فمنهم من يتذكَّر في الدنيا، ومنهم من لا يتذكَّر، إلَّا في اليوم الذي يُؤتى به إلى جهنم مُصَفَّداً بالأغلال، وحينما يُواجِه النار تحصل له الذكرى حينئذ. ولكن ماذا تنفعه الذكرى في ذلك الموقف، وماذا ينفعه التحسُّر إذ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾؟

فلنُقدِّم لآخرتنا مادمنا في هذه الدنيا، خاصةً إذا عرفنا أن المسافة بين الدنيا والآخرة هي لحظة واحدة فقط. فإذا جاء الأجل

(١) سورة الفجر، آية ٢٣ - ٢٤.

باغـت الإنسـان بحيث لا يستطيع أن يفتح عينـه أو يُغمضها، وقد قال اللَّه سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

فمادامت اللحظة الواحدة هي المسـافة بين الدنيا والآخرة، فلابـد من أن نتذكَّر وألّا نتغافل، ونسترسـل مع مجريـات الدنيا، وهذا هو الهدف من الابتلاء والفتنة في الدنيا.

(١) سورة الأعراف، آية ٣٤.



نداء الضمير

إن من أعظم المصائب التي ابتُلي بها المسلمون هي الازدواجية، وهي أن يعيش الإنسان حالتين في ذاته متناقضتين، ويطلق عليها في الأدب القرآني اسم «النفاق»، وهو من الصفات البذيئة التي يبغضها اللَّه سبحانه، ويُعلن عليها الحرب في كتابه بشكل متواصل، والسر في هذا التأكيد هو أن أكثر الناس يزعمون الصدق والصلاح والإخلاص، فإن ناقشت أحدهم فإنه يأبى الاعتراف بأنه على خطأ، في حين أنه قد يكون على ضلال مبين.

الازدواجية داء عضال

هذه هي مشكلة الإنسان، والداء العضال الذي يُبتلى به. إنه ليس داء الكفر، بل هو داء النفاق.

فحالة الازدواجية -إذن- هي حالة الخداع الذاتي التي تحول دون تغيير الإنسان لواقعه إن هي استمرت في ذاته؛ فإن أخطأ أحدنا، ونبَّهه أحد إلى خطئه، فإنه سيأتيك بعشرات التبريرات

والأدلة ليُثبت لك صحة عمله، وسلامة ما اضطر إليه، وأنّى لك إقناعه، وهو ذلك الإنسان الذي يتمتع بقوة الجدل كخصيصة رئيسية فيه، كما يُشير إلى ذلك القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

فالإنسان خصيم مبين حتى في يوم القيامة، فهو يُجادل حتى اللّٰه سبحانه.

ففي ذلك اليوم، يوم قيام الساعة، تشهد على الكافر جوارحه، والأرض التي كان يطؤها، والملائكة والناس والنبيون.. لكنه يحلف باللّٰه صلافة منه أنه لم يكفر أو ينافق أو يعمل الموبقات وما إلى ذلك.. فكيف السبيل إلى إصلاح أنفسنا ونحن لا نخرج عن حدود التفكير بالذات، ومبتلون بِدَاء الازدواجية والتبرير، داء خَلْق الأعذار حين اللوم والنقد؟

لا تبرير أمام محكمة الضمير

ترى هل يمكن للإنسان التخلُّص من داء التبرير والأعذار والتملُّص؟

يقول اللّٰه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2]. فلكل إنسان نفس تلومه عند ارتكاب الموبقات

---

(١) سورة الكهف، آية ٥٤.

(٢) سورة القيامة، آية ١ - ٢.

والسيئات والأخطاء، فقد يتخلّص هذا الإنسان من ملامة الآخرين له، وقد يستطيع خُداع المجتمع، وقد يُثبت في المحكمة براءته عند ارتكابه لجريمة قتل، لكنه لن يسلم من تأنيب ما في داخل النفس وهو الضمير الذي يُؤنّبه في كل ساعة، بل في كل لحظة.

نحن نرى القتلة الذين يمتلكون ذرة من الضمير مُعذّبين في أنفسهم، ولا يعرفون الراحة طيلة أعمارهم؛ إنهم يعيشون الازدواجية وعذاب الضمير، وهذه هي النفس اللوامة التي يُشير إليها ربنا سبحانه مُقسِماً بها: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[1].

وفي الآيات الأخرى يكشف القرآن عن مكمن التبرير، فيقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾. فالإنسان قد يُبرّر أفعاله، ولكنه حين يعود إلى نفسه لا يجد مفرًّا من الإدانة في محكمتها. فلو كذّب -مثلاً- فإنه يُوقن في ذاته أنه كاذب.

محكمتان لا مفر منهما

وعلى هذا فهناك محكمتان؛ الأولى هي المحكمة الكبرى الرهيبة، محكمة العدل الإلهية في يوم القيامة. والثانية هي المحكمة الصغرى، ألا وهي محكمة الضمير، هذا الوجود اليقظ الذي لا يمكن للإنسان إلغاؤه مهما أُوتي من فنون الخداع؛ فهو الحاكم الداخلي الذي يُدين الإنسان ويُؤنّبه. ولذلك جاءت الإشارة في يوم القيامة إلى هاتين المحكمتين، فمرة يأتي الخطاب: ﴿لَآ أُقْسِمُ

(١) سورة القيامة، آية ٢.

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[1]، وبعدها مباشرة: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾[2].

وقد جاء عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكَذِّبُ الْكَذَّابَ، اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ مَعَهُ، ثُمَّ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ»[3].

والكذب هو رأس كل خطيئة وجريمة، وهذه حقيقة واضحة. فالإنسان الذي لا يكذب لا يُقْدِم على ارتكاب الآثام والانحرافات، ففي حالة ارتكابه للسيئات أو انحرافه فسوف يكون عُرضةً لسؤال الناس، وهنا من الممكن أن يتوسَّل بالكذب والخداع من أجل ألَّا يفضح نفسه.

ونحن نسمع ونجد في حياتنا اليومية الكثير من الأعذار الباطلة التي هي نوع من الكذب، من قبيل تقاعس البعض عن أداء صلاة الصبح أو الواجبات الدينية الأخرى بحجة النُّعاس والتَّعب.. في حين أنه يُنفق ساعات طويلة من وقته فيما لا طائل من ورائه.

وهكذا فقد جعل اللّه تعالى في داخل كل إنسان ضميراً، وجعل فيه مشعلاً من نورٍ وهَّاج، والإنسان يحاول أن يحجب هذا النور أو يهرب منه أو يُخمده، ولكنه لا يستطيع ذلك.

فهذه الأعذار وأمثالها مرفوضة عند اللّه تعالى، بقوله: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾[4]، وبقوله في موضع اخر: ﴿ يُخَٰدِعُونَ

(١) سورة القيامة، آية ١.

(٢) سورة القيامة، آية ٢.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٢٣٩.

(٤) سورة النساء، آية ١٤٢.

اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

وعلى هذا ينبغي للإنسان أن يكون صريحاً مع نفسه، واضحاً.

وأنا لا أدري لماذا نكذب، وما هو الضرر من أن نكون صادقين، ولماذا لا نحاول أن نكون كذلك؟

إن الإنسان الذي يُعوّد نفسه على الكذب والتبرير فسوف لن يخسر إلّا نفسه، لأنه حينما يقف أمام نفسه اللوامة، وإزاء ملامة العقل والشرع، تراه يحاول التملُّص والتهرُّب بمختلف الأعذار والتبريرات.

إن الإنسان الذي يُعوّد نفسه على التبرير وخلق الأعذار، ترى علاقاته مع الآخرين في المجتمع غير طبيعية، لأن محكمة الضمير تجعله دائماً في خوف وتردد؛ فتراه يخشى أن ينكشف كذبه، ويُفْضَح أمام الناس.. في حين ترى الإنسان الصادق مرضيًّا من قبل نفسه، ومن قبل المجتمع، والأهم من ذلك مرضيًّا من قبل اللّه تعالى.

الكذب أساس كل خطيئة

وقد رُوي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قال: «اتَّقُوا الْكَذِبَ، الصَّغِيرَ مِنْهُ وَ الْكَبِيرَ، فِي كُلِّ جِدٍّ وَ هَزْلٍ، فَإِنَّ

(١) سورة البقرة، آية ٩.

الرَّجُلَ إِذَا كَذَبَ فِي الصَّغِيرِ اجْتَرَى عَلَى الْكَبِيرِ. أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَصْدُقُ حَتَّى يَكْتُبَهُ اللَّهُ صِدِّيقاً، وَ مَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ حَتَّى يَكْتُبَهُ اللَّهُ كَذَّاباً»[1].

ولكن للأسف البعض ينسى أو يتناسى هذه المقولة الشريفة، فيتصوَّر أن الخلاص في الكذب. صحيح أن الكذبة الأولى أو الثانية قد تُنجيك في بادئ الأمر، ولكن ذلك لا يستمر، فلابد من السقوط في المأزق والفضيحة والإدانة وتبًّا لحياة كهذه مليئة بالالتواء والتملّص والتبرير.. إنها حياة التعاسة والبؤس.

فعلينا أن نقطع الحبل الشيطاني هذا لكي نستقيم في حياتنا. فالشعب الذي يتربّى ويتهذَّب على أساس الصدق لا يمكن أن يُبتلى بالطغاة. فأولئك الأشخاص الذين يخدعون أنفسهم، ويُبرِّرون سكوتهم بتبريرات واهية، ويخضعون للطاغوت بأعذار تافهة، هم الذين يمثلون ذلك الشعب أو تلك الأمة الخاضعة الخانعة للطغاة والظلمة الذين يقتلون أبناء هذه الأمة الواحد بعد الآخر، ويسومونهم العسف والتنكيل والعذاب.

وهكذا فإن على أي شعب أن يكون صادقاً وصريحاً في موقفه أمام الطغاة، ولو فعلت الشعوب ذلك لما اخضرَّ عُود الطغاة وتجذَّر.

ومن الطبيعي أن الأمة عندما تكون صادقة وصريحة وواعية،

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٣٣٨.

وتصدى للظلم والانحراف، فإن الطغاة والظالمين سوف لا يعود بإمكانهم التسلّط عليها. وعلى العكس من ذلك فإن الأمم الملتوية المنافقة ذات المواقف التبريرية الخانعة هي التي تُصاب بوباء الطغيان، وتُبتلى بالظالمين والمُتجبّرين.

لذلك ينبغي علينا أن نكون صادقين، وأن نربي أجيالاً صادقة صريحة لا تعرف الالتواء والانحراف، من أولئك الذين يرون التبرير والاعتذار نوعاً من الكذب، ومن أولئك الصادقين الذين يُعاهدون أنفسهم على الصدق والأمانة والشرف والإخلاص.. فإن أوكلت إليهم مهمة ما، أدّوها على أحسن وجه دون غشّ ومُخادعة.

وللأسف فإن حياتنا المعاصرة قد امتلأت بالغش والغل والنفاق، وخصوصاً في صناعاتنا، وصفقاتنا التي نعقدها في الأسواق، والبضائع التي نبيعها، إلى درجة أننا نُفضّل شراء المنتوجات الأجنبية على منتوجاتنا الوطنية. ترى إلى متى يستمر هذا الحال بنا، وأي بركة نتوقعها من تعاملنا وتصرفنا المنحرف؟!

الصدق في العمل أساس منعتنا

عندما نعمل ونؤدي خدمة ما، فعلينا أن نُتقن عملنا، ونؤدّيه على الوجه الأمثل مادامت هناك أجور تُعطى لنا مقابل أعمالنا وخدماتنا هذه. فهذه الأجور يجب أن نأكلها حلالاً طيباً، لا من

جـراء الغش والإهمال والتقاعـس وتضييع الوقت. فكل أهمال أو غـش إنمـا هو ثغرة تفتح في جـدار كياننا، وبازدياد هـذه الثغرات، فإن هذا الجدار سـوف يتهدم لا محالة، وبالتالي ينهار البناء كله لا سمح اللَّه.

إنَّ مَثَلَ الإتقان والإخلاص والجد والمثابرة في أداء واجباتنا وأعمالنا كمثل الآجر الذي يُشَـكِّل البناء، فانعدام أية آجرة سيؤدي بالتأكيد إلى انهيار هذا البناء.

فتعالوا نبدأ من جديد حياة جديدة تتسم بالوضوح والصدق والإخـلاص والتفانـي.. تعالـوا لنعيـش النصـح بيننـا، وأن يكون أحدنا مرآة للآخر، وعندها سـتكون أمتنا عزيزة شامخة في دنياها، وبضمان ذلك نكون قد ضمنا الآخرة والسعادة في الدارين.

تزكية النفس

من ميزات القرآن الكريم أنه كتاب خالد لا يُخْلِقه مرور الأزمنة والدهور، فأين -يا ترى- يكمن سر خلود القرآن، ولماذا بقي هذا الكتاب جديداً وطريًا رغم تقادم السنين، ورغم أن كل الكتب التي ألَّفها البشر، أو حتى التي أُنزلت من السماء أصبحت كتباً قديمة أثَّر فيها مرور الزمن؟

سر خلود القرآن

السبب في ذلك أن القرآن لا يُعالج عادة المُتغيرات، فكل ما فيه هو تعبير عن السنن الثابتة التي لا تتغير، ومن هذه السُّنن سُنَّة تقدُّم أو تخلُّف الأمم. فلماذا يا ترى تتقدَّم بعض الأمم، في حين أن البعض الآخر يتأخَّر؟

الجواب: إن هناك سُنناً وقوانين وقواعد ثابتة يتم على أساسها تقدُّم أمة وتخلُّف أخرى، ومن هذه السُّنن أن اللَّه سبحانه وتعالى لابد وأن يُخرج ما يُبطنه الإنسان. فالإنسان يسعى عادة من أجل

أن يُخفي في نفسه صفات لا يحب أن يُبديها للآخرين، فكل واحد منا يحاول ألّا تنكشف حقيقته أمام الملأ العام. ففي داخل ضمير الإنسان بعضٌ ممّا لا يرتضي أن يكون ظاهراً أمام الآخرين؛ فقد يكون سيِّئ الظن بالناس، وقد يستشعر في نفسه حب الاعتداء على الآخرين، وقد يكون بخيلاً أو يُضمر في نفسه الحقد على غيره... ولكن هل يُبادر هذا الإنسان إلى كشف كل حقيقته للآخرين؟

طبعاً لا، بل إنه يسعى لأن يُبقي ستاراً بينه وبين الآخرين.

ماذا لو انكشف ما في ضميرك؟

ولنفرض أنك تظاهرت أمام إنسانٍ ما بخلاف ما يعرفه في ضميرك، وما تُفكّر فيه؛ إنك في هذه اللحظات ستشعر بالخجل، لأنك تعرف أنه قد اكتشف حقيقة ما تُفكّر فيه، في حين أنك لا ترضى بذلك، ولهذا السبب فإننا ندعو اللّه تعالى في الأدعية التي نقرؤها ألّا يفضح سرائرنا أمام الخلق.

أما في الآخرة فإن الوضع يختلف تماماً، ففي هذه الدار ستنفضح كل الأسرار؛ فلو ارتكب الإنسان في هذه الدنيا خطيئة فإنه سيبعث يوم القيامة وآثار هذه الخطيئة بادية على وجهه. وقد جاء في رواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «مَنْ أَعَانَ عَلَىٰ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَكْتُوبٌ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ تَعَالَىٰ»[1].

(١) ثواب الأعمال، الشيخ الصدوق، ص٢٧٦.

وهكذا فإن السرائر لابد وأن تُبلى، كما صرَّح بذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾[1]. وكم هي فضيحة كبرى أن يتظاهر إنسان ما بالعبادة والزهد والعمل الصالح في الدنيا ثم يُبعث يوم القيامة ويده تتكلَّم بشيء، ورجله تشهد عليه بشيء آخر، وتفضحه جميع أعضائه!

ومن سُنن اللّه تعالى الثابتة، أن الإنسان لو أخفى شيئاً في ضميره فإنه لا يموت حتى ينفضح أمام الآخرين من خلال أعماله، ذلك لأن اللّه سبحانه يبتلي الإنسان ويمتحنه ويفتنه لكي يظهر ما في قلبه إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر.

ومن أجل أن نُوضِّح هذا الموضوع لنفرض أن هناك إنساناً بخيلاً لا يُظهر بُخله بسبب فقره، فيدَّعي الكرم، ويدَّعي أنه لو امتلك الثروات والأموال لملأ الأرض جوداً وكرماً، كما يُشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[2]. فالبعض يقول: ربنا أعطنا من فضلك حتى ننفق في سبيلك، ولكن اللّه عندما يأتيهم من فضله فإنهم يبخلون به. ومثل هذا الإنسان يرزقه اللّه تعالى من باب الفتنة والاختبار ولو ساعة واحدة في عمره، ثم يعرض عليه رجلاً محتاجاً ليثبت له بذلك كيف سيكون بخيلاً.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الإنسان الجبان الذي يدَّعي

(١) سورة الطارق، آية ٩.

(٢) سورة التوبة، آية ٧٥.

الشـجاعة قائلاً: إن شـجاعتي سـوف أظهرها عندما أدخل سـاحة الوغـى، فينهـال بالمـدح لنفسـه، وإذا باللّـه تعالى يبتليـه بموقف يستدعي الشجاعة ليكشف حقيقة جبنه.

وهناك من الناس من يدَّعي أنه مصلح، فيبتليه اللّه بالرئاسة ليثبت له كيف أنه سيفرق بين العباد، ويفسد في الأرض، ويقطع الأرحام.

وهكذا فإن اللّه عز وجل يمتحن الإنسان في الدنيا، لا ليعرفه الناس فحسب، بل لكي يعرف نفسه وقابلياته، لأنه قد يخدع نفسه بنفسه.

ومن هنا فإن على الإنسان أن يُصلح نفسه أولاً. فاللّه سبحانه يحاسب الإنسان على ما في ضميره، ولكنه لا يجازيه. فالمحاسبة قائمة، ولكن اللّه تعالى لا يُعاقب إلّا على الفعل لا النية، فمن نوى سـوءاً ولم يعمل به فإن اللّه عز وجل سـوف يُحاسبه على نيته هذه دون أن يُعاقبه، فيعفو عنه بالتالي.

من خصائص الأمة المرحومة

ومن رحمة اللّه تعالى بالعباد أنه يفعل العكس من ذلك تماماً، فلـو نوى الإنسـان المؤمن خيراً ولكنه لـم يُوفَّق له، فـإن اللّه تعالى سـوف يمنحه أجر هذا الخير، لأن نية المؤمن خير من عمله، وهذه خصيصـة من خصائـص الأمة المرحومـة. فمن حُبِّ اللّـه وتقديره وكرامته لنبينا محمد ﷺ أنه أعطى أمته ميزة (الرحمة) دون سـائر الأمم السابقة، فلو نوى أحد أفراد هذه الأمة سوءاً ثم لم يعمل به لم

يُسَجَّل عليه، ولو نوى حسنة ولم يعمل بها سُجِّلت له ثواباً.

وهذه كرامة كبيرة لأمة النبي ﷺ، ذلك لأن ما يضمره الإنسان في قلبه لابد أن يظهر في يوم من الأيام، فعليه أن يُطَهِّر قلبه، ويُزَكِّي نفسه، ويجعل قلبه سليماً على الدوام من خلال السعي لعدم نية الشر. وعلى سبيل المثال؛ فإن الحسد الموجود في قلب الواحد منا لابد وأن يظهر على لسانه، وملامح وجهه في يوم من الأيام، فعلى الإنسان -إذن- أن يُطَهِّر قلبه من جميع الصفات الرذيلة.

وعلى العكس من ذلك فإن على الإنسان أن يُربِّي ويُنمِّي في نفسه الصفات الحسنة، لكي تترسَّخ هذه الصفات في نفسه، وتظهر في يوماً ما. فمن المستحبات المؤكدة أن يُحدِّث الإنسان نفسه بالجهاد في سبيل الله، كما يُشير إلى ذلك النبي ﷺ في قوله: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ**»[1].

فعلى الإنسان -إذن- أن يُطَهِّر قلبه من الصفات السلبية، ويغرس فيه الصفات الإيجابية، وأن يُوحي لنفسه دوماً بها، فقلب الإنسان يكشف عما فيه نتيجة الامتحانات المتتالية.

والأمة النزيهة المتقدمة هي الأمة التي تنمو على هذه الأسس الرفيعة؛ أي على قيم الشجاعة، والإقدام، والكرم، والدفاع عن

---

(١) منتهى المطلب، العلامة الحلي، ج٢، ص٨٩٨.

المظلوم، ومقاومة الظلم.. ولذلك فإن هذه القيم تبرز وتتجلى في اللحظات التي تُواجه فيها الأمة الصعوبات، فتطفو على السطح، وتقوم بدورها في بناء الحياة.

أما إذا ابتعدنا عن القيم التي أمر اللَّه تعالى بها، فإنه سوف يستبدل بنا قوماً غيرنا، كما يُصرِّح ربنا سبحانه في خصوص قيمة الإنفاق في سبيل اللَّه:

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾[1].

وبذلك يسلب منا الإيمان وصفة الإسلام ليأتي بقوم آخرين يتمتعون بالإيمان، والصفات الحسنة التي أشرنا إليها.

وهكذا لابد أن نُنمِّي في أنفسنا صفات الخير، ونطهرها من صفات السوء، لأن الأيام ستظهر الصفات الكامنة في قلب الإنسان؛ ومن هذه الصفات صفة البخل التي تقابلها صفة الكرم والجود والعطاء، فيجب أن نُبادر إلى العطاء، ونُربِّي أنفسنا عليه، وخصوصاً عندما يواجه إخواننا المؤمنون الأزمات الحادَّة والمآسي والنكبات التي تجعلهم في أمس الحاجة إلى تقديم يد العون والمساعدة إليهم.

(١) سورة محمد، آية ٣٨.

الاستقامة أبداً

العلم هو بمثابة النور الوهّاج، وكل نور لابد له من مصدر ينبعث وينتشر منه، ولذلك فإن العقل الذي يحمل العلم هو مصدر ذلك النور. فنور العلم ينطلق ويشع من زجاجة العقل، والعقل هو أفضل مخلوق إلى اللَّه سبحانه وتعالى. ولذا فقد كان أعظم الناس وأوفرهم حظّاً في هذا الحب الإلهي، هو الأكثر عقلاً وإدراكاً وفهماً.

وهكذا فإن العمر الذي يقضيه الإنسان في التفكر والتعقل لا يذهب هباء، وقد قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ**»[1].

العقل أنبل وأسمى الغايات

وهناك خصال وغايات شتى يود الإنسان أن يتصف بها وينالها فيُعرف بها، لكن أعظم وأنبل وأسمى تلك الخصال والغايات هي أن يصبح الإنسان ذا عقل ناضج، وتفكير سليم

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج١١، ص١٨٣.

يتصف بكل صفات العقل الراقي، وإنما يكون هذا العقل، ويخرج إلى الوجود حينما يستلهم المزيد من النور الإلهي، والإمداد الرباني من اللَّه الذي خلقه أول ما خلق، فقال له: «أَقْبِلْ فَأَقْبَلَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَدْبِرْ فَأَدْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا خَلَقْتُ خَلْقاً هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَ لَا أَكْمَلْتُكَ إِلَّا فِيمَنْ أُحِبُّ. أَمَا إِنِّي إِيَّاكَ آمُرُ، وَإِيَّاكَ أَنْهَى، وَإِيَّاكَ أُعَاقِبُ وَإِيَّاكَ أُثِيبُ»[1].

والقرآن الكريم هو تجلٍّ للتكامل العقلي، ولو شئنا أن نرى العقل المتكامل متجلياً وظاهراً لأبصارنا فما علينا إلَّا أن نتصفح سُوَر القرآن الكريم المباركة، ونتلو آياته ونتدبَّر فيها، فهي دروس تُغنينا بالمزيد من التفتُّح الذهني، والإدراك والسمو الفكري، شريطة التدبُّر والتفكُّر والعمل بهذه الآيات الكريمة.

يقول تعالى في هذا المجال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2].

فالعظمة التي نستشفها من هذه الآية الكريمة هي أنها رسمت الخطوط العريضة لرسالات اللَّه تعالى التي بعث بها الأنبياء والرسل عليهم السلام فقد أُمروا أن ينالوا الطَّيِّب والحلال من الرزق في هذه الحياة، وأن يسعوا في الوقت ذاته في العمل الصالح والرُّقي بالإنسانية نحو الكمال والسمو تحت الرقابة الإلهية.

---

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١، ص١٠

(٢) سورة المؤمنون، آية ٥١.

ويستمر السياق القرآني في الآيات التي تلي هذه الآية ليُوضِّح ويشرح الخطوط العريضة بشكل مجمل وموجز.

لكيلا نضل وننحرف

وقبل أن نتطرَّق إلى صُلب الموضوع لابد لنا من أن نعي حقيقة أن الإنسان قد يشتبه عليه الأمر فيُخْطِئ الطريق، وينحرف عن الاتِّجاه الصائب والسير الصحيح في القضايا والأمور، وانحرافه هذا يكون في البداية انحرافاً هيِّناً وبسيطاً إلى حدٍّ ما، ولكن بما أن هذا الإنسان في حركة وعمل مستمرين، ولأنه سلك الناحية السلبية منذ البدء، فإنه سيتوغل في هذا السلب أكثر فأكثر، وعندئذ يكبر خطؤه، ويتعاظم انحرافه حتى ينغمس في الضلال التام والبعيد.

ولذلك فقد تصدَّى القرآن الكريم لهذه الحركة المنحرفة، ووقف دون استمرارها، فضلاً عن أنه يحول دون حصولها منذ البداية لو التفت الإنسان إلى ندائه الشريف وتعاليمه الفاضلة. فمهمة القرآن الكريم هنا الحيلولة دون وقوع الإنسان في هاوية الانحراف والضلال.

وفي قول اللّه سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾[1]. نهي ضمني غير مباشر عن أكل المحرمات، وهذه المحرمات منها ما هو عيني الحرمة كأكل الميتة، وشرب الخمور، أو تناول

(١) سورة المؤمنون، آية ٥١.

ما هو نجس ومُسكر؛ فمثل هذه الأشياء والمواد تتصف بحرمتها الذاتية. أما القسم الآخر من التحريم هو الأكثر شيوعاً فيتمثل في (الحرمة التكوينية)، وهي الحرمة التي تتكون حسب تصرف الإنسان؛ ومثال ذلك من يأكل رغيفاً حراماً رغم أن الرغيف غير محرم بطبيعته الذاتية، بل أصبح محرماً هنا بسبب أن مصدره من المال الحرام، أو أن يكون مسروقاً أو اكتُسب بأي طريقة أخرى مُحرَّمة كأن يكون من السحت أو غيره...

ومثل هؤلاء تجدهم مجرد موجودات استهلاكية، لا تستغل الطاقات التي خلقها اللّه تعالى لها في الإنتاج والعمل؛ فهم يحاسبون الناس، ويطالبونهم بالحقوق، ولا يحاسبون أنفسهم على ما يجب أن يُؤدُّوه من الواجبات تجاه المجتمع، فيقضون حياتهم في التحايل والمخادعة، وفوق ذلك تجدهم يُطالبون بأفضل المطالب، فهم يريدون أن يتقاسموا الحقوق مع الناس قسمة ضيزى، وأن تكون لهم حصة الأسد، وهم ربما لا يشعرون أن ما يأكلونه ويشربونه ويلبسونه وكل ما لديهم من وسائل الرفاه والراحة إنما هو حرام في حرام، وليس من الطيبات التي أمرنا اللّه تعالى أن نتمتع بها بما بيَّنه لرسله عندما وضع لهم الخطوط العريضة.

السعي في طلب الرزق الحلال كالجهاد

فالدرهم الواحد الذي نكسبه بكدّ اليمين، وعرق الجبين من الحلال الطَّيِّب، يكون السعي من أجله كالجهاد في سبيل اللّه

تعالى. والحديث الشريف يقول: «**الْكَادُّ عَلَى عِيَالِهِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»[1]، والكدّ هو دِين الأنبياء والرسل والأوصياء، فلقد كانوا يعملون ويُجاهدون في سبيل الحصول على الرزق الحلال الطَّيِّب، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[2]. عبارة: ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ تشير إلى معنى حركتهم في طلب الرزق شأنهم في ذلك شأن سائر الناس الذين يخرجون صباح كل يوم بحثاً عن الرزق وطلباً له.. فكانوا يعملون في الصناعة والزراعة أو يُمارسون التجارة، والجميع يعلم أن نبينا ﷺ كان قبل بعثته راعياً ثم أصبح تاجراً. وفيما يخصّ النبي داود عليه السلام نقرأ ما رُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى دَاوُدَ عليه السلام: أَنَّكَ نِعْمَ الْعَبْدُ لَوْلَا أَنَّكَ تَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَا تَعْمَلُ بِيَدِكَ شَيْئاً.**

قَالَ: فَبَكَى دَاوُدُ عليه السلام أَرْبَعِينَ صَبَاحاً، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الْحَدِيدِ: أَنْ لِنْ لِعَبْدِي دَاوُدَ. فَأَلَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الْحَدِيدَ، فَكَانَ يَعْمَلُ كُلَّ يَوْمٍ دِرْعاً فَيَبِيعُهَا بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، فَعَمِلَ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ دِرْعاً فَبَاعَهَا بِثَلَاثِمِائَةٍ وَسِتِّينَ أَلْفاً وَاسْتَغْنَى عَنْ بَيْتِ الْمَالِ»[3].

وهكذا فإن أغلب الأنبياء والرسل كانوا ذوي مهن؛ فالنبي نوح عليه السلام كان نجّاراً، والنبي إدريس عليه السلام كان خطّاطاً وخيّاطاً،

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٥، ص٨٨.

(٢) سورة الفرقان، آية ٧.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج٥، ص٧٤.

ومنهم من كان يمارس الزراعة والرعي والتجارة والصناعة فيكسبون بذلك رزقاً حلالاً طيِّباً؛ فلم يكونوا متواكِلين أو مُعتمِدين على الواردات المالية العامة كبيت المال، والحقوق المالية وغير ذلك. وعلى سيرتهم وسلوكهم كان آئمتنا عليهم السلام.

وهكذا فإن المنهج الصحيح والسليم الذي يجب أن نسلكه في الحياة لطلب العيش هو الحركة والسعي والعمل لطلب الرزق الحلال، فللدنيا سعيها، وللآخرة سعيها. فطلب الرزق الحلال هو في الحقيقة عمل صالح يُثاب عليه إذا كان طلبه بنية التقرُّب إلى اللّه تعالى، ومن ناحية أخرى فإن السعي من أجل كسب الرزق الحلال هو خدمة نُقدِّمها إلى المجتمع، ومساهمة في تقدمه وتطوره.

أسباب هبوط المعنويات

وعلى هذا فإنك إن أحسست في نفسك بهبوط في المعنويات الروحية، ووجدت نفسك تاركاً للمستحبات والمندوبات، قليل الطاعات، غير طالب لأداء ما يضمن لك الجزيل من الثواب والأجر، وإذا استشعرت في نفسك كل القساوة في القلب التي لا تنفع معها الآيات القرآنية، والمواعظ البالغة والأحداث التي تهزّ كيان الإنسان.. إنْ وجدت كل ذلك في نفسك، فعليك -والحال هذه- أن تبحث عن الأسباب والعلل التي أوصلتك إلى هذا الحال، ففتِّش عن الجذور التي أنبتت في قلبك هذا الزرع الخبيث. ومن يدري لعل كل ذلك نابع من طعامك الذي تتناوله، وطريقة حياتك التي تتعامل بها.

فانظر إلى منهاج حياتك؛ هل هو مجرد منهج استهلاكي أو أنه يتسم بالعطاء والإنتاج؟ فالمهم في الأمر أن تُدرك أنك عضو من أعضاء هذا المجتمع الإنساني الكبير، فكيف تسمح لنفسك وأنت واحد من هذه البشرية وقد منحت العقل والقوة النشاط أن تتواكل، وتُلقي بكلك على الآخرين، وكيف تُسَوِّل لك نفسك أن تأكل لقمة الآخرين، وتسرق جهودهم.. هل ترضى لو انعكس الأمر فأكل الآخرون حق كدِّك وتعبك وصادروا إنجازاتك، ألا تحسُّ في هذه الحالة بأن وضعاً سيِّئاً ومرفوضاً كهذا هو سبب تراجعك في مسيرة حياتك؟

وبناء على ذلك؛ فإن الإنسان الذي لا يُفكِّر إلَّا في الاستهلاك وإشباع نهمه، ولا يخطر على باله إنتاج وعطاء وإنجاز، والذي يريد أن يكون كَلًّا على الآخرين.. مثل هذا الإنسان لابد من انزلاقه ووقوعه في المُحرَّمات والانحراف في حياته؛ فالعامل الكسول المماطل لابد أن يكذب على رب العمل فيما إذا طالبه بإنجازه وإنتاجه، لأنه لم يُنتج أو لم يُكمل إنتاجه ويُتقنه.

الحسد نتاج الكسل

ولعل الحسد هو أحد ثمار الكسل الخبيثة. فالحسود عندما يركن إلى الراحة، ويتجنب العمل والبذل والعطاء، ثم يرى بعد ذلك نفسه في المؤخرة، في حين أن زملاءه قد تقدَّموا عليه بعملهم المثابر، وحركتهم ونشاطهم فأصبحوا في المراكز المتقدِّمة والمرموقة، فحينئذ لابد أن يشعر بالحسد تجاههم، ويتولَّد لديه

الحقد عليهم. ولذلك كان الحسد مُقترناً دائماً بالحقد، وهو أحد الابتلاءات الكبرى التي ابتُلي بها الصالحون والصِّدِّيقون في التاريخ، ولعل أئمتنا عليهم السلام وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام عانوا ما عانوا من حسد مناوئيهم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الحسود الحاقد سيكون في وضع نفسي يتقبل فيه أغلب الصفات السيئة والمُنكرة، فهو يقترن بالكذب والغيبة والتهمة والسرقة والبهتان على الآخرين وشهادة الزور وسوء الظن بالآخرين. وبسبب روح الحسد التي نشأت عنده، ودبَّت في كيانه، ينجرُّ إلى سوء العاقبة، فأعاذنا اللَّه من الحسد والحاسدين.

الاتكالية سبب التخلف

ونحن لو نظرنا إلى المجتمعات التي يتَّصف أكثر أبنائها بالكسل والاتِّكالية والاستهلاك والكيد والمكر والتحايل، فإننا لابد أن نجد مواقع مثل هذه المجتمعات في المُؤخِّرة؛ أي في مُؤخِّرة مسيرة الركب الحضاري. وكجزء من تخلُّفنا، فإننا عندما نسمع أن المُنتَج الفلاني هو من الصناعة المحلية فسرعان ما ننبذه، ونُلقيه جانباً لأننا نعلم أن صانعه لا يُعتمَد عليه فيُجيد الصناعة ويُتقنها، بل هو كسول خامل، سارق للجهد والزمن. وعلينا ألَّا ننسى في هذا المجال أن عدم إقبالنا على صناعاتنا المحلية هو الآخر عامل سلبي يُعزِّز التخلُّف فينا. صحيح أن صناعاتنا ليست بالمستوى المأمول والجودة المطلوبة بسبب العوامل السلبية التي سبق وأن ذكرناها،

ولكننا مع ذلك يجب ألّا نتخلّى عن اقتنائها رغم مساوئها؛ لأن هذا التشجيع من شأنه أن يُحسِّن جودتها على المدى البعيد.

فلننظر إلى البلدان الفقيرة والمُتخلِّفة التي تُسمّى على سبيل المجاملة بـ(الدول النامية) أي التي تعاني من وطأة الديون والقروض الخارجية للدول الناهبة المسماة بـ(الدول المتقدمة)، أفلا تعني هذه الظاهرة أن تلك البلدان تقضي عمرها في التسول وانتظار الهبات رغم خيراتها ومواردها وثرواتها الكثيرة؟ ومع ذلك فإن مسؤوليها يدّعون بصلافة أنها مستقلة وحرة، فأين الحرية والاستقلال؟!

إن البلدان التي لا تقف بُنيتها الاقتصادية على عمود قوي، وركيزة راسخة من الصناعة المتطورة، والإنتاج الجيد، والزراعة المزدهرة.. فإنها ستبقى فقيرة ومُتخلِّفة ومتسوِّلة مهما ادّعت التطور، والازدهار، والاستقلال، فهي ستبقى تعيش في ظل ثقافة الاستهلاك، واعتماد السيولة النقدية الآتية من الثروات التي تُباع للمُستغلِين العالميين. وهذا هو مصير المجتمعات التي يسود أفرادها التَّوَاكُل، والخمول، والتحايل.

فلنعتبر بالحقراء كما نعتبر بالعظماء

إن الإنسان عادةً ما يبحث في حياة العظماء، ولكنني أوصيه أن يبحث أيضاً في حياة السافلين والحقراء، وأن يبحث عن أسباب انحطاطهم وتردِّيهم، علماً أن اللّٰه سبحانه وتعالى خلق الجميع سواسية؛ أي أنه جعل خلقة الحقير كخلقة العظيم، فالاثنان خلقهما

اللَّه في أحسن تقويم، فلماذا رد البعض إلى أسفل سافلين؟

يمكننا أن نعثر على السبب في حياتهم، فمثل هؤلاء تجد أغلبهم ينتمي إلى الأسر المرفَّهة والمُتْرَفة، ثم إذا بالحياة تقذفهم في أمواج البلاء، فيرون أنفسهم مُضطرين إلى الاعتماد على أنفسهم، ولكنهم لا يُجيدون عملاً، ولا يُتقنون صنعة.. فقد عاشوا حياتهم مُتَّكلين ومُعتمدين على غيرهم، ولذلك تراهم يميلون إلى أساليب الكسب الرخيصة كالتزييف والغش والخداع والتحايل.. للاستمرار في حياتهم. وقد ينتهي الأمر بأولئك الذين اعتادوا مُعاقرة الخمور، أو تعاطي المُخَدِّرات، واقتراف المُنكرات والعادات البذيئة إلى مصير أولئك المترفين نفسه، فتسلب منهم القدرة على مقاومة مشاكل الحياة الاجتماعية، ويفتقدون الشجاعة والاستقامة، ولذلك فإنهم يلجؤون إلى أسوأ الأدواء، ظانين أنه الدواء، كالمُسكرات والمُخَدِّرات والتوافه الأخرى.

ترى لماذا يهرب هؤلاء من الحياة؟

إنهم يريدون البقاء عبئاً ثقيلاً على الحياة، وكَلًّا على الناس، وعالةً على المجتمع، ولذلك خاطب اللَّه سبحانه وتعالى رسوله الأعظم ﷺ فقال: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾[1].

ويستشف من هذا القول الكريم أن اللَّه تعالى يطلب من رسوله

(١) سورة الإسراء، آية ٨٠.

ﷺ أن يكون صادقاً أميناً في مواقفه ومسالكه وتصرفاته، صادقاً في كلامه، وأميناً في عمله، وأن يتحلّى بالشجاعة والنشاط.. لأن الإنسان الذي يدخل مدخل الصدق الإلهي، ويخرج مخرج هذا الصدق، هو الذي سيُؤتيه اللَّه السلطان الظاهر الشامل، ونقصد به الحكومة والسلطة السياسية، كل هذا سيكون من نصيب مثل هذا الإنسان الصادق المستقيم الحافلة حياته بالجد والنشاط والمثابرة والعطاء.

كنز التقدم كامن في نفوسنا

فعليك ألّا تنتظر أن يبعث اللَّه لك كنزاً، بل ابحث عن هذا الكنز في ضميرك، فهو موجود في هذا الضمير، وفي عالم الإحساس الداخلي، وعالم الشعور بالمسؤولية الكامن في ذاتك، فابحث عنه لتستخرجه وتستثمره.

إن فكر الإنسان وطاقاته الخلّاقة هي المعدن الخالص الثمين، وهي الذهب الذي لا ينضب، فلماذا لا نستخدم ونستثمر هذه الوديعة الإلهية التي لا تُضاهيها وديعة منحها اللَّه تعالى للإنسان؟

وللأسف فإن الذي نصبُّ اهتمامنا عليه هو الوصول إلى الثروة وكسب الأموال، في حين أن هذا التفكير مغلوط. فليكن المال الذي نحصل عليه ناتجاً عن عرقنا وجهدنا، وعن اتّباع الأساليب النزيهة. فالسبل التي ينعدم فيها الجهد والبذل والعمل هي سبل يُحذّرنا منها الشرع، بل إن بعضها مُحرّم أساساً كما هو الحال بالنسبة إلى الرِّبا، لأنه يُمثّل أموالاً اكتُسبت دون عملٍ

وجُهدٍ مقابلها، ومن هذا الباب جاء تحريمها. ولذلك فإن الحرمة والكراهية تنطلقان من هذه القاعدة؛ فكلّما قلَّ الجُهد والعطاء مقابل الثمن الحقيقي، كلّما اقترب هذا الثمن من الكراهية والحرمة. وفي هذا الخط يندرج الاستغلال والاحتكار وما أشبه ذلك.

فلنبحث عن الكسب والمال بشق الأنفس والتعب والجهد واقتحام الصعاب، لأننا إن قُمنا بذلك، فهذا يعني ارتفاعنا إلى مستوى الصعوبة والتحمل والشجاعة، وبذلك نذوق لذة الأموال التي نكسبها وحلاوتها، ومن ثَمَّ نُدرك قيمة نعمة المال التي تضيع في حالة الشبع والبطر، وكذلك الحال بالنسبة إلى سائر أمور الحياة ومُتطلباتها. فلنبحث دوماً عن الصعب، ولا نتوقع اليسير؛ ففي العلم والثقافة -على سبيل المثال- لنتجنب البحث عن السهل واليسير، بل علينا أن نبحث عن العمق والتفاصيل، وليكن بحثنا هذا متسماً بالدقة والتأكد والحفظ.. فهذا هو التعلُّم المنشود.

وهكذا الحال في الحياة، فعلينا أن نبحث فيها عن القوة ومصادرها التي من شأنها أن تُذلِّل الحياة الصعبة، ولا ننسى في هذا المجال الدعاء الذي علّمنا إياه القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فالمؤمن عندما يطلب النصر من الله تعالى، فإن طلبه هذا لا يتّجه مباشرة إلى النصر، بل يُقدِّم طلب التثبيت والشجاعة لأنهما أهم من النصر،

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٠.

فهما السبيل إليه. فإن تكون شجاعاً أهم وأعظم من أن تكون منتصراً، لأن المنتصر الجبان يُضيِّع النصر كما أشار إلى ذلك الشاعر بقوله:

ومن ملك البلاد بغير حرب
يهون عليه تسليم البلاد

نخلص من ذلك كله إلى أنَّ المهم في الأمر هو أن يزداد الإنسان عقلاً ونضجاً، وينمو فيه جانب الإدراك والتفتح حتى يتمتع برؤية واضحة للحياة. فلا نُفكِّر أن تنبسط لنا الأمور في هذه الحياة فنجدها سهلة سلسة كحياة المتسولين، وحياة مدّ يد الحاجة إلى الغير، وإلقاء الكَلّ عليهم، بل لنُفكِّر في أن نعيش حياة الشجعان. فإن كان الواحد منا في جمع فليكن في المقدمة؛ أي في مقدمة الباذلين، وفي رأس صفوف المجاهدين، وسبَّاقاً في العطاء والكفاح في هذه الحياة.

وفي إطار الأسرة لنحاول تأمين سعادة أزواجنا وأطفالنا، وراحة واطمئنان عيالنا ولو على حساب معاناتنا وشقائنا، ولا ندع الأنانية تتوغَّل إلى أعماق نفوسنا فتبعث فينا الشعور المقيت بأننا محور الحياة، بل لنتجاوز هذه الروح الأنانية، وحب الذات، ولنُفكِّر بسعادة الآخرين وراحتهم، ولنكن كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ نَفْسُهُ مِنْهُ فِي تَعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ»[1]. فلنحاول أن يستشعر منا الآخرون الراحة.

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٦٢٠.

الوحدة مصدر قوتنا

وهكذا فإن شئنا أن نجعل من أمتنا أمة قوية ومُوحَّدة، فعلينا ألَّا نستجدي القوة من الغير، ولنُبْدِع ولنعمل المستحيل حتى نجبر الآخرين أن يعترفوا بوجودنا وقوَّتنا وثباتنا. ونحن نشقُّ طريقنا من أجل تحقيق هذا الهدف، علينا ألَّا نُعير أهمية لما يقوله الناس، فالمهم أن نكون في الحالة المطلوبة؛ وهي أن نُثْبِت وجودنا وقدرتنا، ونُفَجِّر طاقاتنا، ونُقيم بناءً متيناً ومرصوصاً لأنفسنا.. ومن خصوصيات البناء الجيد هي قوة الشدّ بين أجزائه، وقوة الشد في بنائها هي الوحدة. فالاتحاد قوة -كما هو معروف- فلنعمل على توحيد صفوفنا، ورصِّها.

وقد تَفْصُلُنَا المسافات عن إخوتنا، فلنعمل على اختزالها بتقوية العلاقات والأواصر وبالتعاون الصادق معهم حتى يُصبح الجميع كتلة واحدة مُتراصَّة. فالجمع القوي لا يُهزم، ولا يمكن أن يكون هدفاً للطامعين، وعلى كل واحد منا ألَّا يفسح المجال لكل من يفكر في الهدم والتخريب والتمزيق، بل علينا أن نردّ كيده إلى نحره؛ ذلك لأن أحد أسباب التخلف والتدهور والهزيمة في مجتمعاتنا وجود العناصر الهدَّامة التي لا تفكر إلَّا في التخريب والتدمير.

وعلى الإنسان المؤمن عندما يسعى من أجل بناء نفسه ومن ثَمَّ بناء مجتمعه ومؤسساته أن يُقيم هذا البناء على أساس قوي راسخ لا يتزعزع، وأن تكون عملية البناء هذه بتوجُّه صادق، ورغبة قويَّة، وسواعد جبارة.

وبهذه الكيفية على الإنسان المؤمن الرسالي أن يمضي في عملية البناء والإنتاج والعطاء، لا تأخذه في الله لومة لائم. فلندع عنا كلام الناس ولومهم ومؤاخذاتهم، وعلينا جميعاً أن ننظر إلى المستقبل، وإلى حسن العواقب، ولا ننسى في هذا المجال الدار الآخرة وأجرها وجزاءها.

وفي مجال الوحدة يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[1]. فإذا كان الجانب الأول يمثل جانب الإيجاب والقوة والتماسك والظهور، فإن الجانب الثاني ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم ﴾ يمثل الجانب السلبي؛ جانب الضعف والتمزّق والهزيمة.

ويستمر هذا السياق القرآني في وصف نتائج السلبية والضعف قائلاً:

﴿ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾[2].

ثم ينتقل السياق إلى الحديث عن المجتمع الإيجابي الرسالي المتماسك، ويوضح البرمجة الصحيحة في حياة هذا المجتمع السوي السليم قائلاً:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ

(١) سورة المؤمنون، آية ٥٢ - ٥٣.

(٢) سورة المؤمنون، آية ٥٤ - ٥٦.

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1].

أي أن الواحد منهم إذا ما عمل لمدة طويلة فإنه لا يشعر بالرضا من نفسه بل يرى فيها التقصير، ويظل هذا الشعور قائماً في ذاته مهما سعى وأعطى وعمل وقدَّم. ومثل هذا الشعور هو من حالات التقوى التي تنمو في النفس الإنسانية المؤمنة، فهي لا يغمرها الإحساس بالفخر والغرور والفرح بالإنجاز والعمل. فهذه القلوب الطاهرة النقية، والنفوس المؤمنة الطيبة المغمورة بالإيمان والصفاء والحب الإلهي، هي التي تدفع صاحبها إلى التسابق والتنافس في فعل الخيرات والعمل الصالح لأنفسهم وللإنسانية جمعاء لما يحملونه في نفوسهم وقلوبهم من نوايا صادقة حسنة. ومثل هذا التوفيق لا يتحقق في جميع الأحيان، لأننا نرى الإنسان أحياناً يبحث عن الخير، ولكن هذا الخير يهرب منه، لزيف ورياءٍ في طلبه للخير. في حين أننا نرى الإنسان المؤمن قلباً وعقلاً، والشجاع المستعد للبذل والعطاء والتسابق في ميادين الجد والاجتهاد، مثل هذا الإنسان لابد أن يكون مُوَفَّقاً ومُباركاً وناجحاً في حياته، وفائزاً في دنياه وآخرته، فتنهال عليه الرحمات والبركات من ربه مادام ماضياً في عمل الصالحات وفعل الخيرات، ومادام حسن الظن بخالقه سبحانه تعالى، وسبَّاقاً إلى كل ما هو مظنة للبركة والخير وخدمة أفراد المجتمع.

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٥٧ – ٦٠.

الهدف العظيم

لكل إنسان هدف في حياته، وقيمة كل إنسان بهدفه، لأن الهدف هو الذي يصنع الإنسان، كما أشار إلى ذلك ربنا سبحانه وتعالى في قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾[1].

وكلما كانت الأهداف سامية وبعيدة المدى اشتدّ عزم الإنسان وقويت إرادته، وتضاعفت همّته، وتعالت تطلعاته. وعلى العكس من ذلك، كلما كانت الأهداف صغيرة ومتواضعة تضاءل الإنسان، وتضاءلت شخصيته وسلوكه.

وبالاستناد إلى ذلك ما هو الهدف الذي نختاره لأنفسنا؟

إنه النجاة من العذاب في يوم الخلود، وعلى الرغم من أن هذه الكلمة من السهل تلفّظها إلّا أنها ثقيلة في الميزان، فهي تعني أن تكون في مستوى هذا الهدف.

(١) سورة الإسراء، آية ٨٤.

وعندما يهدف الإنسان إلى النجاة من النار، فإن هذا يعني أنه يستهدف التخلُّص من سلبيات نفسه، وتجنُّب أدران الحياة، والتعالي عن دنس الشهوات، والابتعاد عن كل ما يُقرِّبه إلى النار ويُبعده عن رضوان الله تعالى.

فعندما يدعو الإنسان المؤمن ربه قائلاً: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[1]، فإن هذا الدعاء ليس ضرباً من الطموح الخيالي الحالم، بل هو تطلُّع حقيقي، فالنار موجودة في واقعنا، وهي محيطة بنا؛ فالذي يأكل مال اليتيم إنَّما يأكل في بطنه ناراً، والذي يظلم إنساناً فإن ظُلمه هذا سيتحوَّل إلى ظلماتٍ في الآخرة، وتتحوَّل المعاصي التي ارتكبها في الدنيا إلى نيران وعقارب وعذاب أليم.. فليس العذاب إلَّا ما نصنعه بأيدينا، فمن يهدف النجاة من النار فهو يبغي في الحقيقة التخلُّص من كل سلبيات نفسه وشهواتها وعلائقها.

والقرآن الكريم الذي بين أيدينا يَدُلُّنا على طريق النجاة إن كانت نوايانا صادقة، وإن كُنَّا عازمين عزماً حقيقيًّا على التخلُّص من نار جهنم، ونريد الوصول إلى هذا الهدف.

والمؤمنون يستهدفون الخلاص من النار الذي يُمثِّل الهدف الأساسي في حياتهم، لأن كل إنسان سَيَرِدُ نار جهنم شاء أم أبى، كما يُشير إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ

---

(١) سورة الفرقان، آية ٦٥.

رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1]. فالهدف يجب أن يكون الخروج من نار جهنم، والنجاة من النار، وهذا هو الهدف الأساس في حياة الإنسان المؤمن.

والقرآن يَدُلُّنا على طريق الوصول إلى هذا الهدف، فهو يخاطب المؤمنين قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]. أما غير المؤمنين فهو لا يُوجِّه إليهم مثل هذا الخطاب، لأنهم لا يريدون الخلاص من العذاب، بل يبحثون عن المال وعن شهوات الدنيا، بل إنهم يُنكرون وجود العذاب أساساً.. ولذلك فإن القرآن الكريم لا يُحدِّثهم، بل يُحدِّث المؤمنين الذين يستفسرون عن سبيل النجاة، فيُجيبهم اللّه تعالى قائلاً: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

صحيح أنهم مؤمنون، ولكن الإيمان النظري يختلف عن الإيمان العملي الذي يتجسَّد في واقع حياة الإنسان. فالمعاناة التي نواجهها في سبيل اللّه مهما تعاظمت هي خير لنا، ولكن الجهل هو الذي يجعل بعض الناس يتصورون أن تلك المعاناة والمصاعب هي شرٌّ لهم، في حين أن اللّه تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[4].

ترى ما هي نتائج جهادنا في سبيل اللّه بأموالنا وأنفسنا؟

---

(١) سورة مريم، آية ٧١.

(٢) سورة الصف، آية ١٠.

(٣) سورة الصف، آية ١١.

(٤) سورة البقرة، آية ٢١٦.

يُجيب القرآن الكريم قائلاً: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. والملاحظ أن الحديث عن الجنة جرى مرتين في هذه الآية، وربما يكون السبب في ذلك أن الجنّات درجات، وأن درجة جنة عدن هي أعلى الدرجات.

ثم يُشير ربنا سبحانه إلى الهدف الأساسي في حياة المؤمنين في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2]. وإلى جانب هذا الهدف يُشير اللّه تعالى إلى هدف آخر في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[3]، فالنصر لذيذ وإذا كان من اللّه فإنه يكون ألذه، والفتح لذيذ أيضاً ولكنه إذا كان قريباً فإن لذته هذه تشتد وتتعاظم.

ثم يبشر اللّه تعالى المؤمنين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي بشرهم في الآخرة بالنجاة من النار، والدخول في الجنة، والفوز بدرجاتها العالية. وهذه هي ثلاث خصال للمجاهدين في الآخرة، وهناك ثلاث خصال أخرى تمنح لهم في الدنيا هي: نصر اللّه، وقرب الفتح، وبشارة المؤمنين.

وربما تعني البشارة هنا أن الإنسان عندما ينتصر على عدوه القريب فإنه سيبحث عن النصر على عدوه البعيد، فاللّه تعالى ينصره على عدوه، القريب، ويفتح له فتحاً مبيناً وقريباً ثم يُبشّره

(١) سورة الصف، آية ١٢.
(٢) سورة الصف، آية ١٢.
(٣) سورة الصف، آية ١٣.

بالهدف الأعظم.

ثم يضيف ربنا سبحانه في سورة الصف المباركة الحديث عن هذا الموضوع قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾[1].

وحسبما يبدو لي فإن القرآن في هذه الآية الكريمة يطلب من المؤمنين التفرُّغ في سبيل اللّه تعالى. فهناك بعض الناس يتفرَّغون في سبيل اللّه، وينذرون أنفسهم له -تعالى- فيحرِّرونها من قيود الدنيا، كما نذرت أم مريم أن تجعل ما في بطنها مُحَرَّراً في سبيل اللّه، لا تُقَيِّده أرض ولا انتماء ولا علاقة. فقد يتزوج الإنسان المؤمن المجاهد، وقد يُنجب الأولاد، ويتَّخذ مسكناً، ولكن لا الزوجة، ولا الأولاد، ولا المساكن، ولا التجارة تُلهيه عن ذكر اللّه، وعن الجهاد في سبيله؛ فترى قلبه يهيم بذكر اللّه وحبِّه ويتوق إليه فيترك الدنيا، فهو من أنصار اللّه وحزبه وأوليائه وجنده. وقد وردت هذه الكلمات كلها في القرآن، وهي تدور حول محور واحد هو التفرُّغ في سبيل اللّه سبحانه وتعالى، وقطع العلائق الأخرى.

إن الحواري هو الذي ينتمي إلى قيادته، فيترك أرضه وعلاقاته ويلتحق بهذه القيادة. فعيسى بن مريم عليه السلام لم يتَّخذ

(١) سورة الصف، آية ١٤.

مسكناً ولا وطناً، فكان يسيح في أرض اللّه، واللّه تعالى يطلب منا أن نكون هكذا؛ ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي أنْ نكون من أوليائه وأنصاره، فنرتفع بذلك إلى مستوى النصير للّه.

ترى كم من الناس كانوا حواريين حقيقيين لعيسى بن مريم عليه السلام؟ لقد كانوا اثني عشر شخصاً فقط ليس إلّا، والآن كم هو عدد من ينتمي صدقاً أو باطلاً؟ هناك بالتأكيد أكثر من مليار إنسان وهم يُشكّلون خُمْس البشرية أو أكثر، وكلهم ينتمون أو يدّعون الانتماء إلى النبي عيسى بن مريم عليه السلام، وإذا أضفنا إليهم أيضاً أكثر من مليار مسلم يُقدّرون ويُكرّمون النبي عيسى بن مريم عليه السلام باعتباره نبيّاً وصِدّيقاً، وهذا يعني أن هناك مليارَي إنسان يحترمون هذا النبي العظيم ويدينون له بالولاء، في حين أن التُّهم كانت تُلاحق هذا النبي في عصره ولم يكن يتجمّع حوله سوى الحواريين.

وإذا قلتَ: إن دين اللّه أقوى وأرفع من أن أكون أنا من أنصاره، قلتُ لك: إن هذا التفكير خاطئ، فاللّه تعالى يُؤيِّد دينه بك وبأمثالك. فالشباب يجب أن يبحثوا اليوم عن هدف، وأبرز هدف لهم هو التفرُّغ في سبيل اللّه عز وجل، فما المانع من أن يتفرَّغوا منذ الآن، وأن يُسجّلوا أسماءهم في جنود اللّه، وأوليائه، وأنصاره؟

البعض من الناس يُفكّرون في المستقبل، ولكن هل مع الكفر مستقبل؟ هل من الصحيح أن أُفكّر -مثلاً- في تنظيف

البيت وترتيب أثاثه، في حين أنه يحترق؟ إن الوقت الآن هو وقت إطفاء الحريق.

إن القرآن ينادي الآن: من أنصاري إلى اللّه أيها المسلمون؟ وعلى شبابنا في جميع أنحاء العالم الإسلامي الاهتمام بهذا الجانب؛ عليهم أن يتجنَّدوا في سبيل اللّه من خلال الالتحاق بالمدارس العلمية، والحركات والمؤسسات الإسلامية.. فالمهم هو التفرُّغ، وإذا ما بادرنا منذ اليوم إلى ذلك فإننا سوف لا نضطر غداً إلى أن نكون أدوات طَيِّعة بيد الطاغوت.

وبالطبع فإن هناك بعض العقبات النفسية التي قد تعترض طريق الإنسان وتُشوِّش عليه رؤيته للمستقبل، وأنا أقول: إن المستقبل مضمون من قبل اللّه سبحانه، وهذا ما يُمليه علينا إيماننا. فإذا ما أردنا المستقبل مُتَمَثِّلاً في قصور وأثاث فاخرة وسيارات أنيقة.. فلنبحث عن حزب آخر غير حزب اللّه، لأن الطعام عند معاوية أدسم. أما إذا بحثنا عن مستقبل العفاف والكفاف والسعادة النفسية.. فإنه مضمون بمقدار من الزهد والتَّقَشُّف والصبر، وحينئذ ستكون حياتك حلوة وسعيدة.. ولكن هناك قِسْماً من الناس يُسيطر عليهم الطمع فَيُضَيِّعُون الدنيا والآخرة.

وهناك البعض الآخر يتذرَّعون بأن أهاليهم لا يرتضون أن ينخرطوا في سلك الجهاد في سبيل اللّه، وفي هذه الحالة علينا أن نُوَضِّحَ لهم الفكرة، ولندعهم يعرفون أننا سنُصبح جنوداً في جيش

صاحب الزمان ﷺ، وهذا أفضل بالطبع من أن ننخرط في جيش الدجالين.

إننا اليوم مُكَلَّفُون بأن نختار الهدف، وهذا الهدف يجب أن يُقرِّره الشباب منذ بدء وعيهم للحياة، فيجب أن نُشجِّع إخواننا الشبان على أن يلتحقوا بالمجالات الدينية، وأن يتفرَّغوا في سبيل اللَّه، وينذروا حياتهم للجهاد والعمل الرسالي، وأن يُبادروا إلى ذلك منذ الآن قبل أن يفوت الأوان، وقبل أن تمتدّ الأيادي الشيطانية لتحرفهم عن مسيرة الإسلام، وتُجَنِّدهم لمحاربة دينهم الحنيف بمختلِف الوسائل والطُرُق. ونحن لا يُمكننا أن نُحقِّقَ هذا الهدف المُقدَّس إلّا من خلال قيامنا بمسؤوليتنا المُتَمثِّلة في توعية الشريحة الشابة من الأمة الإسلامية وإرشادها.



القسم الثالث

بَصائرُ



حكمة الحياة

من المعلوم أن الإيمان باللّه تعالى غاية الحكمة، والإنسان يبحث عن الكمال، وهذا الكمال لا يُبلَغ إلّا بالحكمة، والحكمة بدورها درجات، وأسمى درجاتها معرفة اللّه سبحانه، ذلك لأن معرفة اللّه تنتهي إلى معرفة كافة السُّنن والقوانين والأنظمة السائدة في الكون بصورة إجمالية أو تفصيلية، واستيعاب هذه المعرفة هي الحكمة.

ولعل هذه الفكرة تبدو فكرة جديدة، أو هي صعبة (الهضم) عند البعض. فالإنسان قد يعيش داخل حدود ذاته دون أن يحسّ بوجود شيء حوله، فلو افترضنا أن هناك رجلاً عُدِمَ الحواس الخمس فلا يُبصر ولا يسمع ولا يلمس ولا يتذوّق ولا يَشَمُّ، مثل هذا الإنسان لا يُمكنه أن يستوعب من الوجود شيئاً، لأن دماغه يستقبل الإشارات من خلال تلك المنافذ، أما إذا أُغلقت فمن المستحيل أن يستوعب هذا الدماغ شيئاً.

مثل هذا الإنسان لا يُمكنه أن يُكَيِّفَ نفسه مع الوسط

المحيط به، لأنه إنما يَتكَيَّفَ من خلال تلك الحواس؛ فقيمة هذا الإنسان ضئيلة، لأنه سوف لا يُؤَثِّرُ في الوسط من حوله، في حين أن الإنسان الذي يمتلك الإحساس سيزداد استيعاباً للحياة بقدر امتلاكه لهذا الإحساس.

وهكذا فكلما ازداد إحساس الإنسان، وامتد عبر الآفاق، زاد استيعابه وإرتفعت قيمته، ذلك لأن العالم يستوعب المزيد من الحياة بعلمه؛ فالذي يعرف الجغرافيا هو أفضل في هذا المجال ممن لا يعرفها، لأنه استوعب خرائط العالم وطبائعه؛ وهكذا الحال بالنسبة إلى العلوم الأخرى.

وفي هذا الصدد يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ مَا يُحْسِن**»[1]. فكلما ازدادت معرفة الإنسان ارتفعت قيمته وسمت، وكلما ازداد استيعابه للكون جمع الكون في ذاته. فالعالِم يجمع العالَم في داخله، لأن علمه يُحيط بهذا العالم، ويُؤَثِّر فيه.

لا قيمة للعلم دون حكمة

ونحن نرى أن بعض الناس يمتلكون العلم ولكنهم لا يملكون الحكمة، وبالتالي فإنهم لا ينتفعون بالعلم الانتفاع الحقيقي.

وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وآله بالله تعالى من مثل هذا العلم، حيث رُوي عنه صلى الله عليه وآله أنه كان يدعو في أثر الصلاة فيقول: «**اللَّهُمَّ**

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم٨١.

إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»[1]. وقال الإمام علي عليه السلام: «لَا خَيْرَ فِيْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»[2].

ذلك لأن هذا العلم هو بمثابة استيعاب للطبيعة دون التكيُّف معها، والإنسان الذي يحمل هذا النوع من العلم لا يمكن أن ينفعه علمه، بل إنه سيحترق بنار علمه هذا في يوم القيامة.

وهذه القاعدة تنسحب أيضاً على السلوكات الأخرى التي تصدر من الإنسان، فهي أيضاً من الممكن أن تحرقنا في نار جهنم، فنحن نؤمن أن الغيبة أشد من الزِّنا، وأن للكذب رائحة خبيثة تصعد إلى السماء لتلعن الملائكة صاحبها، وأن الظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة، وأن مَنْ يُؤَخِّرُ صلاته فهو مُستهين بها كما قال اللّه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[3].

نحن نُؤمن بكل ذلك ونعلم به، ولكن علمنا هذا لا ينفعنا، لأن مجرَّد العلم لا يكفي، فالعلم هو وسيلة للتكيُّف؛ أي لكي يعيش الإنسان بشكل أفضل، ولكيلا تُحْرِق به المخاطر.

المفهوم الحقيقي للحكمة

وعندما يقترن العلم بالعمل يطلق عليه اسم «الحكمة»، وقمة الحكمة هي معرفة اللّه، لأن الإنسان المؤمن باللّه تعالى لا

(١) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري، ج٥، ص٧٠.
(٢) نهج البلاغة، رسالة رقم ٣١.
(٣) سورة الماعون، آية ٤ - ٥.

ينحصر علمه في أن لهذا الكون إلهاً، وأن هذا الكون مترابط، وأن الكائنات والمخلوقات تخضع لقوانين دقيقة، بل إنه يستوعب تلك الحقائق ويعيها؛ أي أنه يُحَوِّلها إلى جزء من كيانه الفكري وشخصيته وتخطيطه وسلوكه.

فالحكمة العالية -إذن- هي معرفة اللَّه معرفة تجعلك إلهي النظرة إلى كل الأشياء؛ أي أن تأخذ بنظر الاعتبار أن اللَّه تعالى يُراقبك، ويُبصرك.

وقد بلغ أنبياء اللَّه وأولياؤه الدرجات العليا من هذا الإيمان، فهم كانوا يرون اللَّه في كل شيء ومع كل شيء، ويذكرون اللَّه سبحانه وتعالى عند كل عمل، وبالتالي فقد كانوا يتعاملون مع الكون وكأن الكائنات كلها تعيش في أدمغتهم وفي حياتهم ونفوسهم. ولذلك نجد أن اللَّه تعالى حينما يُريد أن يُبيّن لنا مسيرة الإيمان، فإنه يقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾[1].

أي أن الحكمة الحقيقية هي شكر اللَّه، ومعرفة أن اللَّه هو سبب كل نعمة.

ومن ضمن الظواهر الملفتة للنظر في هذا المجال أن هناك أُناساً قد بلغوا من العلم مقاماً سامياً ولكنهم جُهلاء فيما يرتبط بتعاملهم مع الحياة، لأنهم لا يملكون علم الحياة. أو بتعبير آخر: فإنهم في وادٍ وعلمهم في وادٍ آخر. وأنا أخشى أن تنتهي مسيرتنا

(١) سورة لقمان، آية ١٢.

إلى هذه الحالة؛ فكيف نستطيع أن نقاومها؟

هناك من يعرف الفقه معرفة دقيقة ولكنه يجهل بعض الأمور الحياتية. فإذا كان هذا العالم لا يستطيع قيادة نفسه وتدبير أمور معيشته، فكيف سيكون بإمكانه قيادة الحياة؟ وكيف سيستطيع التعامل مع قضاياه وحاجاته؟

هناك حكمة مشهورة تقول: «العقل السليم في الجسم السليم». فالعقل له تأثير كبير على الجسم، والعكس أيضاً صحيح. فهل باستطاعة الإنسان المريض أن يُصبح عالماً كبيراً؟

إن الهدف من العلم أن تُخطِّط لنفسك، وأن تعتني بها، لا أن تكون متهاوياً ضعيف البنية. والمؤمن القوي خير وأحب إلى اللّٰه من المؤمن الضعيف.

وقد كان الإمام علي عليه السلام مثال الإيمان القوي والجسم القوي، ولابد للإنسان المؤمن أن يجعله عليه السلام قدوة له. فقد كان عليه السلام يخوض الحروب عندما بلغ الستين من عمره، وهو الذي استطاع أن يقتلع باب خيبر، وكل هذا إنما هو نتيجة لجسمه السليم.

وللأسف فإن البعض لا يهتم بمعالجة نفسه عندما يمرض، وقد يستمر به المرض لفترة طويلة حتى يقضي عليه، وهذه سلوكية خاطئة. فعلى الإنسان أن يمنع المرض عن نفسه، وأن يحيط علماً بالإجراءات الوقائية التي تجعل جسمه سليماً ومعافى.

وهـذا مـا يدعونـا إلـى أن ننظـر إلى الحيـاة بجد فـي جميع أمورنـا، لأنهـا هي أمـور مُهمَّـة وحيوية، وقـد أمرنا الإسـلام بها، وقـد كانـت الغالبية العظمى من توجيهـات النبي ﷺ توجيهات حياتية تتعلَّق حتى بالأكل والشرب وكيفية الذهاب إلى المسجد.. فعلينا أن نتأدب بآداب الإسلام بالإضافة إلى الآداب العامة، وهذه التوجيهات تمثل منهج حياة لنا في دنيانا وآخرتنا.

وهكذا فإن الإسـلام يُؤكِّد على الإنسان المسلم أن يهتم بما حولـه من مظاهر الطبيعة، وبـالأدوات والأجهزة التي من الممكن أن يسـتفيد منها، وأن يعرف قوانين وسـنن الحياة، لكي يسـتثمرها ويُسَخِّرَها لخدمته بالشكل الأفضل.

كيف نواجه تقلبات الحياة؟

إن تطورات الحياة التي يجتازها الإنسان -سواء تلك التي تَخُصُّه كفرد أو ما تَخُصُّ المجموع كمجموع- لا تحدث عبثاً، وإنما هي ذات حكمة رشيدة وبالغة، فهي تستهدف إظهار معدن الإنسان وابتلاءه، فتظهر من خلالها شخصيته، ويتبيَّن واقعه.

وللإنسان قدرة على أن يُلقي معاذيره، وَيَحُوْكَ لنفسه مجموعة متكاملة من التبريرات، ويصنع لنفسه واقعاً كاذباً يعيش فيه، ويزعم أنه واقعه، ويظل يعيش في هذه الدوامة التي خلقها لنفسه حتى يأتي الامتحان وعندها يُكْرَم أو يُهَان. فعند الابتلاء تظهر خبيئة الإنسان، وتتكشَّف حقيقته، وتبدو سرائره، لا للناس فقط، وإنما لنفسه أيضاً، وهذا هو الأهم. وهنا يزول الوهم، وينتهي الحلم، وينهار الكذب والنفاق.

الموقف الأمثل من تطورات الحياة

وإذا كانت هذه هي حكمة التطورات الفردية أو الاجتماعية

التي يعيشها الإنسان، فالسؤال المطروح هنا هو: ما هو موقف الإنسان من هذه التطورات الحياتية المختلفة المُتَمثِّلة في الألم، والفقر، والمرض، والجهل، والعجز... وما هو موقفه من المجتمع، ومن التحدِّيات الحضارية التي يعيشها، وما هو موقف المجتمع من العِزَّة والذِّلَّة، والاستقلال والعبودية، ومن التقدُّم والتخلُّف؟

فإذا كانت حكمة التطورات هي إظهار خبيئة الإنسان، ووضعه على المحك، ومعرفة واقعه، فلابد من أن يستفيد هذا الإنسان من التطورات، وإلَّا كانت هذه التطورات أشبه بتلك التي تطرأ على الصخرة على أنها قد تفيد من هذه التطورات الطارئة عليها، في حين أن الإنسان قد يحرم نفسه من الانتفاع بها لغياب الحكمة منها عنه.

يقول اللَّه عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾(1).

فعندما يمنح اللَّه الإنسان نعمة، فإنه يفرح بها، وإذا نزعها منه إذا به ييأس ويكفر بالنعمة، ولا يتذكَّر أيام الرخاء.. فهو لا يشكر نعمة الصحة والسلامة والأمن والاستقلال.. فلو فقد شيئاً من هذه النعم لفقد ذاته وشخصيته.

وأما إذا كانت حياته حياة بائسة تعيسة مليئة بالمشاكل ثم رفع اللَّه عنه هذه الشدة، وأنعم عليه بالرفاه والرحمة والبركات فإنه بدلاً من أن يشكر اللَّه تعالى، ويُقارن بين حياة السوء التي كان يحياها

(1) سورة هود، آية ٩.

سابقاً، وحياة الرفاه التي ينعم بها حاليًا، تراه يتوغَّل في الجريمة، فإذا به يتخلَّى عن شكر اللَّه، فيفرح، وفي حالة الفرح يفقد الزمام، فيعيش حالة شعور بانعدام المسؤولية، وحالة الطغيان.

فيشعر وكأن الحياة كلَّها جاءته طائعة ومستجيبة، وأنه سوف لا يُصاب بسوء بعد اليوم أبداً، كما يُشير إلى ذلك ربنا سبحانه: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1]. فتحدث عنده حالة الفرح؛ وهي حالة الامتلاء بالسرور، وعدم الشعور بالمسؤولية، ثم تحصل عنده حالة الفخر؛ حيث يفتخر بوضعه وكأن السراء التي يتنعَّم فيها هو الذي خلقها، وهو الذي أوجدها بنفسه!

إن الطبيعة الفطرية للإنسان، طبيعة الضعف والجهل البشري يمكن تغييرها وإصلاحها. فمن الممكن أن يُصبح الإنسان في حالة الشدة قويًا يمتلَّكه الأمل، ويسعى من أجل مستقبل أفضل، وفي حالة الرخاء شاعراً بالمسؤولية، ومُفكِّراً في المستقبل؛ أي على عكس حالة الجهل والسذاجة، ومثل هذه الحالة المثالية يصفها اللَّه تعالى في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[2].

وهكذا فإن حالة الإنسان عندما تبدَّل من الفقر إلى الغنى، فإنما هي امتحان له من قبل اللَّه تعالى ليبلو موقفه في الفقر والغنى. فكل واحد منا يعيش حالات التعاسة وفي أوقات أخرى يعيش السعادة، ولكن المهم هو الموقف الذي يتَّخذه منها.

---

(١) سورة هود، آية ١٠.

(٢) سورة هود، آية ١١.

استغلال فرص الحياة

وهكذا فإن على الإنسان ألّا ينسى أيام السوء حين يعيش حالة السعادة في أيام شبابه وفراغه، وأيام صحته وأمنه، وعليه ألّا يغيب عن باله أيضاً أن هذا الشباب سيتبدّل في يوم من الأيام إلى مشيب وشيخوخة.

فعلينا ألّا ننسى تلك الأيام، وأن نُفكّر فيها ونتحرّك من أجلها، هذه حالة فردية. ولكن المعادلة ذاتها قائمة في الحياة الاجتماعية أيضاً؛ فإذا كانت الأمة صابرة على المشاكل، لا تُسرف في أيام الرخاء، وتُفكّر في أيام السلم والأمن لأيام الحرب والخوف، وتُفكّر في حالة الاستقلال بالمحافظة عليه.. فإن هذه الأمة هي بالتأكيد أمة قوية ومستقيمة وقادرة على مقاومة التحديات. أما إذا كانت الأمة مُسرفة مُبذّرة في حالة الغنى، ولا تُفكّر عند الاستقلال بالمحافظة عليه، فلابد لها من أن تعيش حياة تعيسة في المستقبل.

ولنا في القرآن الكريم خير شاهد على ذلك، فآياته الكريمة تُشرق على هذه الحياة كما تُشرق الشمس، ولكن العيون مُصابة بالرمد، والقلوب يعلوها الصدأ، والعين تُنكر ضوء الشمس من رمد، ويُنكر الفم طعم الماء من سقم.

إن واجبنا يتمثّل في أن نحاول أن نكون ممّن قال عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]، ولا نكون ممّن قال عنهم ربنا عز وجل: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ

(١) سورة هود، آية ١١.

لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1].

علينا -إذن- أن نتوجَّه للعمل، وأن نبذل الجهود من أجل نشر الوعي، وينبغي أن نستفيد من هذا المستوى الذي بلغناه من التقدُّم وما حصلنا عليه من المكاسب، للحصول على مستويات أعلى من التقدُّم، ومكاسب جديدة.

أضف إلى ذلك أن هذه الحرية التي نتمتَّع بها علينا أن نُحافظ عليها، وأن نُطالب بالمزيد، وألَّا ننسى الحكمة الأصيلة من الحياة، والخطوط العريضة في حياتنا فوق هذه الأرض، وأن تكون لدينا بصيرة ورؤية قرآنيتان تجاه الأوضاع.

الصراع سنة اللّه في الأرض

﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[2].

مما لا شك فيه أن أول فريق يدخل النار يتمثَّل في الآلهة المُزيفة التي تعبد من دون اللّه، والتي هي في الحقيقة طغاة

(١) سورة هود، آية ١٠.

(٢) سورة ص، آية ٥٥ - ٦٤.

السياسة، ومُترفو الثروة، ومُضِلو العباد.. فهم يستقرون في قعر جهنم، ثم يُؤتى من بعدهم بفوج آخر هم التابعون لهم، والمُطيعون لأوامرهم، فيقحمون في نار جهنم إقحاماً.

وهكذا يُقحم الفوج الثاني في بطن الفوج الأول، وهنا يبدأ الصراع والخصام بينهما، فإذا بأولئك الذين كانوا السبب في إضلال الفوج الثاني يقولون؛ أين تأتون؟ ليس في المكان سعة حتى نستقبلكم، لا مرحباً بكم. أما التابعون لهم والمُطيعون لأوامرهم فيقولون: بل أنتم لا مرحباً بكم، أنتم قدمتم هذا المصير لنا، فلقد كنا سُذَّجاً وبُسطاء، فجئتم أنتم وشكَّلتم أجهزة التضليل والدعاية والإعلام، وكوَّنتم أجهزة للإرهاب، فقدَّمتم بذلك النار لنا.

تخاصم أهل النار

وبعد أن يُبيِّن الله هذا الصراع، ويُصوِّر لنا مشهداً منه في سورة ص، يعلن بصراحة قائلا: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾[1]. أي أن هذا الصراع هو قضية واقعية سوف تتحقَّق فعلاً.

وهنا يُطرح السؤال التالي: لماذا أكد القرآن على هذه الحقيقة، حقيقة الخصام والصِّراع بين أهل النار؟

أجاب المفسرون عن هذا السؤال إجابات شتى، إلَّا أن ما يبدو لي أن الهدف من بيان هذه الحقيقة يتمثَّل في أمرين:

(١) سورة ص، آية ٥٥ - ٦٤.

١- العذاب أكثر من مجرد عذاب جسدي

بيان حقيقة أن النار أكثر من مجرد عذاب جسدي، رغم أن هذا العذاب عظيم فهو يشوي الوجوه والأكباد والكلى، ولهيبه يغمر الإنسان غمراً؛ أي أنه يسبح في نار جهنم كما يسبح في الماء، فالنار تُحيط به من كل جانب حتى يعطش عطشاً شديداً، فلا يُسقى إلّا حميماً وغسّاقاً، وهو الماء المُلتهب الذي إذا شربه الإنسان احترقت أحشاؤه.

ومع كل ذلك فإن العذاب المعنوي المُتَمَثِّل في الصراع بين أهل النار هو أشد وطئاً عليهم. فالإنسان إذا عاش في مكان ما وكان معه رجل واحد يؤذيه، فإن هذا المكان سيتحوّل جحيماً وإن كانت جنةً وفردوساً لوجود من يُؤذيه فيه، فكيف بأهل النار وهم يعيشون في جهنم ملايين السنين مع من يتصارعون ويتخاصمون معه، إنه عذاب أشد من العذاب المادي.

٢- لابد للإنسان من أن يخوض الصراع في الدنيا

بيان حالة الصراع والخصام وبالتالي بيان حقيقة مهمة وهي أن على الإنسان أن يخوض صراعاً ما في حياته، فإذا خاض صراعه في الدنيا فإنه سيُنجي نفسه من الصراع في الآخرة، وإلّا فإن هذا الصراع سوف يُلازمه في يوم القيامة. فالخصام بين فريقين: الطغاة من جهة والتابعون لهم من جهة أخرى، وهذا الصّراع إنّما يحدث بين هذين الفريقين لأن الفريق الثاني ترك الصراع في الدنيا؛ بمعنى

أن أغلـب الناس الذين يقودهـم الطغاة فإنَّما يقودونهم إلى الفسـاد والانحـراف والضَّـلال.. وهـؤلاء هم وَقُـود جهنـم وحطبها، وهـم يدخلـون النار لأنهـم كان بإمكانهـم أن يقاوموا الطغاة والسُّـلطات السياسـية، ولكنهم تركوا هذه المقاومة، واسترسلوا مع الطغاة ومع الآلهـة المُزَيَّفَة؛ أي الطغاة وأنصارهم، وقد استرسـلوا معهم لأنهم لم يُكلِّفوا أنفسهم عناء الصراع معهم، مع أن اللَّه تعالى بين للإنسان عندمـا أهبطه إلـى الأرض قائـلاً: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[1]. مُوضِّحاً بذلك السُّنَّة الإلهية المُتَمَثِّلة في حتمية خوض الصِّراع والجهاد.

أمـا عندمـا يسـكت الإنسـان، وتثبـط عزيمتـه إزاء السـلطة الفاسدة في بلده خوفاً على نفسه وأهله وماله.. مُتَشَبِّثاً بهذه الفكرة التبريرية، «ما لي والدخول بين السـلاطين»، فإنه بلا شك سيُصبح في الآخرة وَقُود النار، وسيُبتلى بالصِّراع فيها. ولو أن الناس قاوموا الطغاة ساعة واحدة لهلك هؤلاء الطغاة جميعهم، لأنهم يستمدون قوتهم من سكوت الناس.

الاحتراز من الدخول في خدمة الظالمين

وفـي هذا المجال رُوي عن علـي بن أبي حمزة أنه قال: كان لـي صديـق من كُتَّاب بنـي أمية، فقـال لي: «اسْـتَأْذِنْ لِـي عَلَى أَبِي عَبْدِاللَّهِ. فَاسْـتَأْذَنْتُ لَهُ، فَلَمَّا دَخَلَ سَـلَّمَ وَجَلَـسَ، ثُمَّ قَالَ: جُعِلْتُ فِـدَاكَ؛ إِنِّي كُنْـتُ فِي دِيوَانِ هَـؤُلَاءِ الْقَوْمِ فَأَصَبْتُ مِـنْ دُنْيَاهُمْ مَالًا

(١) سورة البقرة، آية ٣٦.

كَثِيراً وَأَغْمَضْتُ فِي مَطَالِبِهِ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: **لَوْ لا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ، وَيَجْبِي لَهُمُ الْفَيْءَ، وَيُقَاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ، لَمَا سَلَبُونَا حَقَّنَا. وَلَوْ تَرَكَهُمُ النَّاسُ وَمَا فِي أَيْدِيهِمْ، مَا وَجَدُوا شَيْئاً إِلَّا مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ.**

فَقَالَ الْفَتَى: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ فَهَلْ لِي مِنْ مَخْرَجٍ مِنْهُ؟

قَالَ: **إِنْ قُلْتُ لَكَ تَفْعَلُ؟**

قَالَ: أَفْعَلُ.

قَالَ: **اخْرُجْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَسَبْتَ فِي دَوَاوِينِهِمْ، فَمَنْ عَرَفْتَ مِنْهُمْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ مَالَهُ، وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ تَصَدَّقْتَ بِهِ، وَأَنَا أَضْمَنُ لَكَ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ.**

قَالَ: فَأَطْرَقَ الْفَتَى طَوِيلاً، فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَمْزَةَ: فَرَجَعَ الْفَتَى مَعَنَا إِلَى الْكُوفَةِ فَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى ثِيَابِهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَدَنِهِ. قَالَ: فَقَسَمْنَا لَهُ قِسْمَةً، وَاشْتَرَيْنَا لَهُ ثِيَاباً وَبَعَثْنَا لَهُ بِنَفَقَةٍ. قَالَ: فَمَا أَتَى عَلَيْهِ أَشْهُرٌ قَلَائِلُ حَتَّى مَرِضَ فَكُنَّا نَعُودُهُ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً وَهُوَ فِي السِّيَاقِ فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا عَلِيُّ؛ وَفَى لِي وَاللَّهِ صَاحِبُكَ.

قَالَ: ثُمَّ مَاتَ فَوَلِينَا أَمْرَهُ فَخَرَجْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِاللَّهِ عليه السلام، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ: **يَا عَلِيُّ؛ وَفَيْنَا وَاللَّهِ لِصَاحِبِكَ.**

قَالَ: فَقُلْتُ: صَدَقْتَ جُعِلْتُ فِدَاكَ، هَكَذَا قَالَ لِي وَاللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ»[1].

إن أولئك الذين يسكتون عن السلطان ويتّبعونه، ويتركون الحبل على الغارب، هؤلاء سيُضطرون إلى أن يدخلوا نار جهنم ليتصارعوا مع أولئك السلاطين أنفسهم.

إن خُضوعك للطاغية هو سجود له، واتّباعك لأوامره وقوانينه هو بحدّ ذاته عبادة. فالعبادة ليست مجرّد السُّجود والرُّكوع، فهي مأخوذة من لفظة (العبد) الذي يعني الخضوع، والعبد إنما سُمّي كذلك لأنه يتخضّع.

من ينجو من الصراع في الآخرة؟

وهكذا فإن الذين يهربون من الصِّراع سوف يتورَّطون به في الآخرة، والذي ينجو من هذا الصِّراع يتمثّل في رجالٍ قليلين كانوا في الدنيا منبوذين، تُلاحقهم تُهَمُ السّلاطين، وأجهزة الإرهاب، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾[2].

أين أولئك الرجال الذين كُنّا نحسبهم إرهابيين، ونظن أنهم أشرار مفسدون؟

(١) بحار الأنوار، الشيخ المجلسي، ج ٧٢، ص ٣٧٥.
(٢) سورة ص، آية ٦٢ - ٦٣.

رُوِي عن عثمان بن عيسى، عن ميسر قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (الإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عليه السلام) فَقَالَ عليه السلام: **كَيْفَ أَصْحَابُكَ؟**

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ؛ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا.

قَالَ: وَكَانَ مُتَّكِئاً فَاسْتَوَى جَالِساً، ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **كَيْفَ؟!**

قُلْتُ: وَ اللَّهِ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا.

فَقَالَ عليه السلام: **أَمَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمْ اثْنَانِ، لَا وَاللَّهِ، وَلَا وَاحِدٌ. وَاللَّهِ إِنَّكُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[1].

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **طَلَبُوكُمْ وَاللَّهِ فِي النَّارِ فَمَا وَجَدُوا مِنْكُمْ أَحَداً**»[2].

إن المُستكبرين في الأرض يزعمون أنهم يستطيعون فرض سيطرتهم وأُلوهيتهم على أهل الأرض جميعاً، في حين أنهم سيكونون -كما يُصرِّح بذلك القرآن الكريم- أوّل فريق دخل نار جهنم، ثم يأتي من بعدهم جنودهم، ثم الذي اتّبعوهم، وسكتوا

(١) سورة ص، آية ٦٢ - ٦٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج٨، ص٧٨.

عنهم. فما قيمة الإنسان الذي ينهض لمخالفة ربِّه، ويتحدَّى كبرياءه؟ إن قيمته أن يكون وَقُود النار.

وقد يزعم الإنسان أن هروبه من واقعه، ومن سُنَّة الصِّراع في هذا الواقع سوف يمنحه السعادة والفلاح، ويُنقذه من المخاوف والمخاطر التي تعترض طريقه، في حين أن هذا الهروب سوف يُضاعِف له في الحقيقة تلك المخاطر، ويسلب منه قدرته على تحدِّيها، وذلك للأسباب التالية:

١ - إن الصِّراع هو من طبيعة الدُّنيا التي تعيشها، فهي بتعبير القرآن دار البلاء والفتنة؛ أي أن الإنسان إنَّما جاء إلى الدنيا ليتحدَّى المشاكل، وليخوض صراعاً مريراً ومستمراً مع الضغوط التي تُمارس عليه، وليتحمَّل تلك الأمانة التي أشفقت السماوات والأرض والجبال من حملها.

فالصِّراع هو بالنسبة إلى الإنسان هدف حياته، وحكمة وجوده، فأين مهربه من هذا الصِّراع؟ فحتى الهُروب من هذا الصِّراع معناه الوقوع فيما هرب منه، وهو التورُّط في العذاب الأليم.

فالحل الوحيد إذن لمشكلة الصِّراع: هو أن تخوضه، وتستعد لمقاومته.

٢ - عندما يهرب الإنسان من الصِّراع فإنه سوف يفقد إرادته، لأنه سينهزم نفسيًّا، في حين أن هذا الإنسان إنما يعيش في الدنيا، وينتصر فيها بإرادته.. أما النفس المنهزمة، والإرادة الخائرة فهي

لا تستطيع خوض الصِّراع مع الآخرين فحسب، وإنما هي عاجزة أيضاً عن كبح جُماح الشَّهوات. فالإنسان الضعيف لا يُمكنه مقاومة شهواته، فضلاً عن مقاومة الطُّغاة والمُتجبِّرين.

٣- إن عدوك يحلو له أن يراك تهرب، فإذا رأيته لا يُلاحقك فاعلم أنه يستعد لمُلاحقتك مُستقبلاً، فإذا هربت منه فإنه سوف يستعِدُّ لمواجهتك؛ ولذلك فلابد لك من خوض الصِّراع معه، وأن تبادره أنت بالمواجهة من خلال الجهاد الذي يُشير إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[1].

فالقرآن يُشجِّعنا هنا على التحدِّي، فلماذا لا نتحدَّى ما دام مصيرنا الموت، وهل فوق الموت من نهاية، وهل هناك شيء يُمكن أن يرهبه الإنسان بقدر ما يرهبه الموت؟

فالإنسان الذي يُدرك حقيقة الموت والحياة، ويُؤمن أن وراء هذه الحياة السعادة الحقيقية، وأن الدُّنيا هي قنطرة، والآخرة هي دار المقر، لا يُمكن أن يهاب الموت، وبالتالي لا يُمكن أن يتهرَّب من الصراع.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2].

(١) سورة التوبة، آية ٣٨.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٩.

فمـن لا يُواجـه عدوّه سـيكون العـذاب الأليم فـي انتظاره، وبالإضافة إلى ذلك فإن اللّه تعالى سـوف يستبدل به إنساناً آخر لا يتخوّف من الجهاد، ويخوض الصّراع في سبيله.

﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ﴾[1].

ترى من أي شـيء نهرب بمواقفنا هذه؟ هل نهرب من الألـم الموجـود في الهرب، هل نهرب من الموت المُعَدّ لمن لا يُحارب ولا يُدافع عن كيانه؟!

إن الهـروب من الصّراع هو مصدر جميع مشـاكلنا، وجميع الآلام والمعاناة التي يفرضها علينا الطُّغاة.

وهكذا فلابد لنا من أن نُواجه الصّراع بنفوس ملؤها الشَّجاعة والأمل والتوكُّل على اللّه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة، آية ٣٩.

(٢) سورة الطلاق، آية ٣.

تحطيم الأصنام

يشتمل القرآن الكريم على برامج جاهزة ومُتكاملة وشاملة لتنظيم الحياة، وإذا ما ركَّزنا اهتمامنا على مجموعة من الآيات فإننا سنكتشف الوجه الخفي لها، وبذلك سنكتشف مكامن الضعف في أنفسنا بما تُقدِّمه لنا هذه الآيات من مناهج تربوية، وستُزاح عن أبصارنا الحُجُب بما نستفيده علماً وهدى وذكرى من كل آية من آيات القرآن الكريم. وفي هذا المجال يقول الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام. «**آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ، فَكُلَّمَا فُتِحَتْ خِزَانَةٌ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا**»[1].

فإذا التزمنا ببصائر الآيات القرآنية، فإن غواية الشيطان، وضلالة الطغيان، لا يُمكن أن تُزِيغنا عن طريق الرسالة.

إن مُشكلة الإنسان لا تكمُن في قِلَّة آيات الهدى أو انعدامها، كما أن مشكلته لا تنبع من صعوبة الوصول إلى اللَّه عز وجل، لأنه

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٦٠٩.

تعالى قريب من الإنسان، كما يُصرِّح بذلك الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعائه في سحر ليالي شهر رمضان المُبارك: «وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ»[1]. بل إن المُشكلة تكمُن في ذات الإنسان، فعندما ضل هذا الإنسان عن طريق الرِّسالة، وزاغ عن منهج الصَّلاح، احتوشته سُبُل الجهالة، فحرفته عن طريق الله.

وهنا تظهر مُشكلة أخرى تسمى بـ«الجهل المُركَّب»، فيُخيَّل إلى الإنسان أنه واعٍ بما يجري، في حين أنه محدود بزنزانة نفسه؛ فمُشكلته تكمُن عادةً في القلب الذي إذا انفتح وأضاء فإن ضياءه هذا سوف يُبدِّد ظلام الشَّهوات، وحينئذ يتَّصل قلب الإنسان بالله تعالى. وهذا الانفتاح في القلب يمرّ عبر قنطرة معرفة النفس، حيث يقول الإمام علي عليه السلام: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّه»[2].

وإذا ما تَمَّ للإنسان ذلك، استطاع أن يُبعد عن عينه غِشاوة الضَّلالة، وعن قلبه حُجُب الشَّهوة، وعن إيمانه غواية الشيطان.

القرآن برنامج متكامل

فالآيات القرآنية الكريمة يُمكننا أن نستلهم منها برنامجاً مُتكاملاً لتوجيه الإنسان، ومن ضمن هذه الآيات تلك التي تتحدَّث عن قصة النبي إبراهيم عليه السلام، وحادثة تحطيمه للأصنام، فهو عليه السلام قبل أن يُبادر إلى تحطيم الأصنام الحجرية فإنه بدأ ذلك

(١) مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي، ص٥٨٣.
(٢) عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي، ص٤٣.

بتحطيم الأصنام التي فرضتها البيئة على نفسه، فانفتح عقله وقلبه على الحقيقة. أما أولئك الذين أمعنوا في عبادة الأصنام، فإنهم حتى لو وُفِّقوا إلى تحطيم الأصنام الخارجية فإنهم سيظلون يعبدونها.

والدليل على ذلك تجربة بني إسرائيل مع نبي اللّه موسى عليه السلام، فبعد أن أغرق اللّه سبحانه وتعالى صنمهم البَشري (فرعون) الذي كان يُعبد من دون اللّه عندما ادَّعى الرُّبوبية، ظلَّت عُقدة عبادة الأصنام كامنةً في نفوسهم، عندما قالوا لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾[1]. وهذا يُؤكِّد أن صنمهم الدَّاخلي كان ما يزال موجوداً في أنفسهم؛ أي أنهم لم يستطيعوا تحطيمه، خلافاً لموسى عليه السلام الذي قام أولاً بتحطيم صنم فرعون في نفسه لينطلق في رحاب الرسالة، ولكن الخضوع للطاغوت كان ما يزال مُتَشَرِّباً في نفوس قومه، بفعل تأثير الرواسب الجاهلية.

وهذا ما يحدث عادة في أغلب التحرُّكات الإصلاحية. فمن المعروف أن أكبر حركة تغييرية في التأريخ تمثَّلت في الرسالة الإسلامية. فرغم عظم هذه الحركة الإلهية التي أحدثت تطوُّراً سريعاً في مجتمع الجزيرة العربية، إلَّا أن الرِّدة إلى الجاهلية حدثت بعد أقل من قرن من بُزُوغ الرسالة الإسلامية، فما هو السبب في ذلك يا ترى؟

السبب الرئيس هو بقاء بعض الرواسب الجاهلية التي كانت

(١) سورة الأعراف، آية ١٣٨.

تسود هذا المجتمع. فصحيح أن الأصنام الحجرية في الكعبة كانت قد حطمت على يد النبي الأكرم محمد ﷺ، إلَّا أن هذه الأصنام نفسها أفرزت آثاراً سلبية فيما بعدُ تمثَّلت في العصبيات القبلية المقيتة.

وقد كان الأئمة الهدى عليهم السلام يبذُلون جهوداً كبيرة في سبيل نقد الثقافة الجاهلية، وإزالتها من الأذهان والنفوس، لكي تسقط بذلك هيبة تلك الأصنام التي تمثَّلت الآن في تقديس الوطنية الجوفاء، وتمجيد اللغة، والتعصب للقوانين.. لكي تُصبح أصناماً تُعبد من دون اللّه تعالى.

عقبتان في طريق الإنسان الرسالي

وبعد أن حطم نبي اللّه إبراهيم عليه السلام الأصنام في نفسه، ثار على تقاليد مجتمعه وبدأ بأبيه، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾[1].

وفي هذه الآية يُؤكِّد اللّه تعالى على وجود عقبتين رئيستين تعترضان طريق الإنسان، وهما:

١- التحدي العائلي

فاللّه تعالى ركّز في هذه الآية على كلمة (أبيه) رغم أن كلمة (قومه) تشتمل على الأب أيضاً، ليُبرِز زيف إحدى القداسات التي قد تكون عقبة كأداء أمام العامل في سبيل اللّه. والحل الذي يُقدِّمه ربنا

(١) سورة الصافات، آية ٨٥.

سبحانه، هو تحدِّي هذه القداسات المُزيفة التي تضع الحُجُب أمام بصيرة الإنسان. فالمعروف أن كثيراً من الأقوام البائدة كانت تُبرِر عدم اتِّجاهها نحو الحق بتمسُّكها بسلوك آبائها، ولذلك فإن على الإنسان أن يتحدَّى سُلطان العائلة إذا كانت مُنحرفة عن طريق الحق.

٢- التحدي الاجتماعي

فالبيئة الاجتماعية تلعب دوراً كبيراً في توجيه الإنسان إلى طريق مُعيَّن؛ فالبيئة الاجتماعية الفاسدة تفرض فكرها على الإنسان من خلال مواصفاتها البعيدة عن النهج الإلهي القويم.

وفي الحقيقة فإن الكثير من الناس يسقطون نتيجة هذين التحديين اللذين يعوقان عن العمل في سبيل اللّه تعالى، ولكن النبي إبراهيم عليه السلام تجاوز هاتين العقبتين، فانطلق في رحاب اللّه مُجاهداً في سبيله.

آفة المقدسات الباطلة

وهناك سؤال يُرواد ذهن الإنسان دوماً أظهرته الآية القرآنية السابقة، ألا وهو: ماذا يعبد الإنسان؟

إن الكثرة الساحقة من الناس تسترسل مع الهوى، فلا تتفاعل مع الرسالة بسبب المقدسات الباطلة. والأدهى من ذلك أن البعض لا يملك الشجاعة الكافية لأن يطرح على نفسه هذا السؤال: لماذا أعبد وأُقدِّس الشيء الفلاني؟ علماً أن في كلمة (عاكفين) الواردة

في قولـه تعالى: ﴿ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[1]. دلالة على الاستمرار في عبادة الأصنام.

وحينئـذ يُجيبهـم نبـي اللّه إبراهيـم عليه السلام قائـلاً: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

والنبـي إبراهيم عليه السلام بهذا الـردّ يقوم في الحقيقة بثورة ضد الثقافة المُتخلِّفة التي كانت شـائعة بين السابقين، حتى لو كانوا من آباء وأجداد الإنســان، ذلك لأنه يزعم أن هذه الأصنام سوف تنفعه يوم القيامة، في حين أنها ستهوي به في نار جهنم.

الموقف من الأصنام

وللأســف فـإن مثل هـذه الأصنام مـا زالت تُعبد فـي أرجاء عالمنـا الإســلامي اليوم، وتتمثّل فـي تقديس الحـدود المُصطنعة التي أوجدها الاستعمار، أو تقديس الأنظمة الحاكمة التي لم يُنزل اللّـه بها من سـلطان، أو تقديس القومية والعنصرية التي سـاعدت على تكريس حالة التخلُّف بين أوساط الأمة الإسلامية.

وما زالت أُمّتنا تُعاني من سـلبيات هذه الأصنام التي أبعدتنا

(١) سورة الشعراء، آية ٧١.

(٢) سورة الشعراء، آية ٧٢ - ٧٧.

عن اللّه تعالى، لأن الذي ينسى ربّه أو المواقف التي تُذكِّره بربّه فيعبد الأصنام -أيّاً كانت- فإن مصيره قد ينتهي إلى التسكُّع على أبواب السلاطين والطواغيت، مع أن هؤلاء السلاطين والطواغيت لا يُمكن أن يجدوه نفعاً.

والنبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُبيِّن لنا الموقف الأصيل والسليم عندما يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾. ومثل هذا الموقف يَنِمُّ عن التكليف الشرعي الذي يقضي بتحدِّي هذه الأصنام ومُقارعتها. فنفسية الإنسان الرسالي لا يُمكن أن تُثنيها المؤثرات البيئية البعيدة كل البُعد عن رسالات السماء، بل هو يضع نُصب عينيه ربَّ العالمين ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهذا المقطع من الآية الشريفة يُرشدنا إلى التوجُّه نحو اللّه تعالى لئلّا نترك أصناماً بالية لنتوجَّه إلى أصنام جديدة أخرى فنقع فريسة هذه الآفة. فالبعض يترك أصنام مجتمعه ليدين بالولاء إلى أصنام جديدة أخرى بسبب الروحية الصنمية التي ما تزال مُتَشَرِّبة في نفوسهم.

وبعد أن يُقرر النبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حقيقة العبودية المطلقة للّه تعالى يبدأ بذكر الصفات الحقَّة التي يتميَّز بها اللّه عز وجل، والتي ترتبط بحياة الإنسان أشد الارتباط، فيقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[1].

---

(١) سورة الشعراء، آية ٧٨ - ٨٢.

طموح مشروع

وهكذا فبعد أن أسقطت الأصنام في نفس النبي إبراهيم عليه السلام تنامت شجرة الإسلام، وتكاملت دوحة الإيمان التي تشمل كافة جوانب حياة الإنسان من خلقه إلى هدايته، ومرضه إلى شفائه، وحياته إلى مماته.. ثم تأتي بعد ذلك طُموحات النبي إبراهيم الحقيقية التي تسمو على الأهداف المادية الوضيعة. واللّه يُؤكّد مسألة الطموح السائر وفق منهجه، وفي القرآن الكريم آيات عديدة تُوحي لنا بذلك، منها قول اللّه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1]. فإذا ما أراد الإنسان أن يكون حاكماً -على سبيل المثال- فإن هذا طموح مطلوب لكيلا تكون الأمة ذليلة ومُستسلمة لغيرها، وفي أثناء هذا الطُّموح ينبغي ألّا يغفل الإنسان عن كونه ناطقاً باسم اللّه تعالى، وسائراً في إطار حكومته الصالحة. ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾[2].

تنظيم الوقت

لكي ينال الإنسان رضوان اللّه تعالى، وسعادة الدارين، لابد أن يقوم بعملين يتبع أحدهما الآخر، وهما:

١- تنمية الطاقات الخَيِّرة في نفسه.

٢- تدبير هذه الطاقات وتنظيمها.

(١) سورة الفرقان، آية ٧٤.

(٢) سورة الشعراء، آية ٨٣ - ٨٤.

إن الكثير من الناس يمتلكون طاقات كبيرة، ومواهب وكفاءات عظيمة منحها اللّه لهم، ولكنهم يُبْتَلَون بسوء التدبير حيث لا يُمكنهم إدارة أنفسهم أو تدبير شؤون حياتهم، وبسبب ضعف الإدارة الذاتية، وقِلَّة التدبير، فإنهم لا يستطيعون الوصول إلى أهدافهم.

والمشكلة لا تكمُن هنا فحسب، فهؤلاء يُضيِّعون بعملهم هذا الدنيا والآخرة، فلا يرضى عنهم المخلوق، وهذا هو أهون الشَّرَّين؛ ولا الخالق، وهذا هو الأعظم والأدهى. فكيف يجب أن يُدير الإنسان نفسه، وما هو التدبير، وما هو سرُّ النَّجاح عند البعض، والفشل عند البعض الآخر؟

وقد تكرَّرت الإشارة هنا إلى سِرِّ النَّجاح، ولكن هذا لا يعني أن النَّجاح له سِرٌّ واحد، بل هو كالعافية، فإنما يُوصف الإنسان بأنه صحيح وأنه يتمتع بصحة الجسد عندما تتوفر فيه مجموعة لا تُحصى من نعم اللّه تعالى. فإذا كان هناك عضو واحد سقيم في جسم الإنسان، فإن صاحبه لا يُوصف بأنه مُعافى، بل يُقال: إنه مريض.

والنَّجاح هو الآخر له عوامل شتى، ولا يُمكن أن يتحقَّق إلَّا بتوفيرها جميعاً؛ فإذا ما فقدنا عاملاً من هذه العوامل فإننا إما ألَّا ننجح، وإذا نجحنا فإن نجاحنا سيكون محدوداً وجزئيًّا.

ومن أبرز جوانب التدبير الذَّاتي، الاهتمام بالوقت ومعالجته.

فالإنسان لا يمتلك إلّا رأسمالاً واحداً هو رأسمال عمره، فإذا نفذ هذا الرأسمال لم يبقَ للإنسان شيء.

وفي هذا المجال يضرب لنا أحد المفسرين مثلاً مضمونه أن الإنسان منذ ولادته إلى وفاته يعيش رحلة، وهذه الرحلة فيها الفراسخ والأميال، والخطوات.. ففراسخها السنين، وأميالها الأشهر، وخطواتها الساعات، كما يُشير إلى ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ**»[1]. ومن الحِكَم المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ مَجْمُوْعَةٌ، فَإِذَا مَضَىْ يَوْمٌ مَضَىْ بَعْضُكَ**»[2].

وهكذا فإن العمر هذا الوقت المحدود الذي لا يمكن شراؤه، والاقتراض منه، أو تمديده ولو للحظة واحدة.. هذا العمر هو أهم وأعظم رأسمال نملكه نحن البشر، ويكون التصرُّف الحكيم فيه هو التدبير له، والاهتمام به، وهذا هو سِرُّ نجاح كثير من الناس.

ونحن مُكلَّفون بأن نهتمَّ بالوقت، خصوصاً إذا ما عرفنا أننا سنُسأل عنه في يوم القيامة، كما أخبرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله إذ قال: «**لَا يَزُوْلُ قَدَمُ عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ اللَّهِ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عُمْرِكَ فِيْمَا أَفْنَيْتَهُ، وَجَسَدِكَ فِيْمَا أَبْلَيْتَهُ، وَمَالِكَ مِنْ أَيْنَ كَسَبْتَهُ وَأَيْنَ وَضَعْتَهُ، وَعَنْ حُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ**»[3].

---

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٧٤.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٢٠، ص٣١٩.

(٣) تفسير القمي، علي بن ابراهيم القمي، ج٢، ص١٩.

والقرآن الكريم يُبيِّن لنا أن الحياة ليست فوضى، فكل شيء في هذا الكون يخضع لنظام وميزان ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴾[1]. فكل عمل يفعله الإنسان يُسجَّل في كتاب ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾[2]. فالعمر الذي تملكه يتحوَّل إلى عمل، وهذا العمل فيه الصغير وفيه الكبير.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الظواهر الكونية ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾[3]، فهناك نظام، وهناك عمر مُحَدَّد للشمس والقمر، كما أن هناك مراحل لهما. فلا تَقُلْ: إن الشمس في هذا اليوم هي كالشمس في اليوم الماضي، بل هي اليوم شمس جديدة، وهذا اليوم هو يوم جديد، وسيكون شهيداً عليك في الغد. ولا تَقُلْ: إن أمامنا عمراً طويلاً، فالذي ذهب لا يمكن أن يعود، والذي يأتي محسوب علينا.

وهكذا فإن الظواهر الكونية تخضع لإرادة اللَّه تعالى وتدبيره وللنظام الذي فرضه على الكون. فلقد رفع اللَّه تعالى السماء بحساب ثم وضع الميزان. فالذي رفع السماء وسمكها، والذي أثبت فيها هذه المنظومات والمجرَّات هو تدبير اللَّه تعالى السائر وفق نظام معين، هو «الميزان». فما هو يا ترى الهدف من وضع الميزان؟

---

(١) سورة القمر، آية ٥٢.

(٢) سورة القمر، آية ٥٣.

(٣) سورة الرحمن، آية ٥.

ويُجيب اللَّه تعالى عن هذا التساؤل قائلاً: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾[1]. أي لكيلا تُصابوا بالطغيان، ولا يُسيطر الغرور على الواحد منكم فيقول: إنني أمتلك عمراً طويلاً، سوف ترى أن هذا العمر الطويل لم يكن إلّا ساعة من نهار أو خيالاً بالنسبة إلى عمرك السابق، وحياتك القادمة. فاللحظة تُعَدُّ تافهةً لا قيمة لها بالنسبة إلى ملايين السنين، وأنت مُكَلَّف خلال هذه اللحظة أن تُحَدِّد مستقبلك.

تصوَّروا أن إنساناً يُكَلَّفُ أن يُدافع عن نفسه أمام محكمة قد تحكم عليه بالإعدام، وقد تحكم بأن تُنَصِّبَهُ ملكاً، ففي تلك اللحظات الحساسة عليه أن يُدافع عن نفسه خلال ساعة واحدة، وأن يختصر حياته، ويستحضر خلاصة ثقافته وتجاربه ومعارفه خلال هذه الساعة الواحدة لكيلا يُخطئ أو ينبس بكلمة تافهة، أو زلَّة لسان.. لأنه يعلم أن هذه الساعة هي ساعة مصيرية بالنسبة إليه؛ فإما إلى الإعدام، وإما إلى الملك العظيم!

وهذا هو حال الإنسان في هذه الدنيا، فعمره ليس إلَّا ساعة؛ إما أن يستغلها، ويغتنم فرصتها فتكون الجنة مصيره، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[2]. وإما ألاَّ يستغل هذه الساعة، فيصفه اللَّه تعالى في قوله: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ

(١) سورة الرحمن، آية ٨.

(٢) سورة القمر، آية ٥٤ – ٥٥.

وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾[1].

فلماذا يا ترى يذهب ذلك الإنسان إلى تلك الجنة الواسعة التي جعلها اللّٰه دار ضيافته، وأسبغ لسُكَّانها وعُمَّارها كل البركات، في حين أن ذلك الآخر يُسحب على وجهه في سقر؟

يجيب اللّٰه تعالى عن هذا التساؤل قائلاً: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

فهذا الإنسان يُجازى، وذلك الإنسان يُجازى أيضاً، وهناك آيات عديدة تُشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن هناك ميزاناً يحكم الآخرة لقياس أعمال الإنسان، ولمعرفة الكفَّة التي ترجح على الأخرى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[3].

ترى ماذا تعني هذه الحقيقة، وما علاقتها بواقعنا؟

إنها تستهدف شيئاً مُحدَّداً، وهو أن يزيد الإنسان من أعماله الصالحة، ويستغل كل مناسبة وفرصة لترجيح كفة أعماله الصالحة. فالإنسان لا يُدرك كم هي ثقيلة ذنوبه في ميزان العدالة الكونية، ولا يعرف هل سيستطيع أن يربح المعركة أم يخسرها في

(١) سورة القمر، آية ٤٦ - ٤٨.

(٢) سورة القمر، آية ٤٩.

(٣) سورة القارعة، آية ٦ - ١١.

ذلك اليوم. فالميزان دقيق وقد يحتاج إلى عمل صالح بسيط لكي ترجح كفّة الأعمال الصالحة فيه. كأن يكون هذا العمل متمثلاً في شربة ماء تسقيها لعطشان، أو قضاء حاجة لمؤمن، أو قيام ليلة واحدة، أو صيام يوم واحد.. فمثل هذا العمل يُضيف مقداراً كبيراً من الثّواب إلى ما لديك من الثواب.

ولنتصوَّر كم سيكون مدى ندمنا في القبر، وفي تلك اللحظة التي تقول فيها متحسراً: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[1] لكي تتزوّد بالصالحات التي استهنت بها، وتُقدِّم لحياتك من خلال العودة ولو يوماً واحداً.

واستناداً إلى ما تقدَّم ذكره، نستوحي أن علينا أن نُسارع في الأعمال الصالحة، وأن نستبق الخيرات، ونغتنم كل فرصة ونزيد من صالحاتنا ولو بعمل بسيط.. فلنتَّقِ اللّه ولو بشقٍّ تمرة، ولنُحاول أن نزيد من أعمالنا الصالحة.. وهذه هي صفة المؤمنين وديدنهم، فهم دائماً يبحثون عن الثواب والعطاء، وعن أساليب جديدة للعمل.

وهكذا فإن الوقت الذي لا تعتني به، ولا تُدبّره ولا تُنظِّمه، قد ينقلب عليك، والمثل يقول: «الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

وهنا نتساءل: كيف نهتمُّ بالوقت؟

---

(١) سورة المؤمنون، آية ٩٩-١٠٠.

هناك عدة اقتراحات أُقدِّمها، وفي هذا المجال عليَّ أن أقول أولاً وقبل كل شيء: إن قسماً كبيراً من أوقاتنا يذهب عبثاً بسبب انشغال بالنا؛ فالقلب المشغول والمُتوتِّر بالقلق لا يُمكن أن يعي أيَّة فكرة، ولا يستوعب أيَّة عِبرة. فكما أن الجسم قد يُصاب بالطفيليات التي لا تدعه يستفيد مما يأكله، فكذلك الرُّوح فإنها أيضاً قد تُصاب بطفيليات روحية تمتصُّ طاقات الإنسان ونضارته وحيويته. فعلينا أن نفرغ بالنا، ونطرد الوساوس والأفكار الشيطانية من أنفسنا. هذا هو **الأمر الأول**.

الأمر الثاني الذي أود أن أُلفت الانتباه إليه، هو ضرورة «ضغط الوقت»؛ أي السُّرعة في العمل كما قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[1]، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾[2]. فالسرعة إذن مطلوبة في أداء الأعمال الصالحة، والإمام علي عليه السلام يقول في هذا المعنى: «**سَاعٍ سَرِيعٌ نَجَا، وَطَالِبٌ بَطِيءٌ رَجَا، وَمُقَصِّرٌ فِي النَّارِ هَوَى**»[3].

وقد يكون المجتمع سريعاً في تعامله معك، وقد لا يكون سريعاً، فحاول أن تَفُكَّ قُيُودَكَ وتتحرَّر من علاقاتك بهذا المجتمع البطيء وأن تنطلق إلى الأمام. وقد علَّمنا أئمتنا عليهم السلام أفضل الدروس في السرعة، وهكذا الحال بالنسبة إلى علمائنا. فالإمام

(١) سورة آل عمران، آية ١٣٣.

(٢) سورة البقرة، آية ١٤٨.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم١٦.

السجاد عليه السلام كان يُصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة، وفي الوقت نفسه كان يُؤدي كل أعماله ووظائفه الشخصية، وأيضاً يُؤدي مهامه الاجتماعية على أحسن وجه.

وبالنسبة إلى علمائنا يكفينا أن نعلم أن الشيخ عباس القمي رحمه الله صاحب كتاب مفاتيح الجنان، وكتاب سفينة البحار وقد كتب ألف الكتب والمجلدات الكثيرة خلال فترة قصيرة، وعندما عرف بعض المُستشرقين ذلك قال أحدهم: إنكم تُشكِّلون لجاناً كبيرة تُؤلِّف الكتب ثم تنسبونها إلى شخص واحد.

فقيل له: إنما ألَّف هذه الكتب شخص واحد، وكان يقوم بأعمال أخرى.

فقال: من المستحيل أن يُؤلِّفَ شخص واحد كل تلك الكتب!

علماً أن الشيخ القمي كان يُصلي بالناس الجماعة، وكان يصعد المنبر، ويعود المرضى.. ومع ذلك فقد ألَّف كتاباً من مثل سفينة البحار الذي يعجز عن كتابته كثير من البارعين!

وهناك أيضاً العلامة المجلسي الذي يقال: إنه جلس ذات مرة في مجلس وقال: الحمد لله الذي وفَّقني لكتابة نصف ما ألَّفه العلامة الحلي. وهذا النصف يبلغ خمسمائة كتاب؛ علماً أن بحار الأنوار لوحده يضم أكثر من مائة مجلد.

ترى من أين جاء علماؤنا بالوقت الذي يسمح لهم بتأليف

ذلك العدد الكبير من الكتب؟

إنهم لم يُعَمِّروا عُمُرَ النبي نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد كانوا مثلي ومثلك في أعمارهم، بالإضافة إلى أنهم تقع عليهم واجبات كثيرة. إن السرّ يكمُن -دون شك- في أنهم ضغطوا أوقاتهم، واستغلوها الاستغلال الأمثل والأفضل. لقد كانوا يكتبون ويُؤلِّفون، ويقومون في الوقت ذاته بإدارة بيوتهم، ويُؤدون مسؤوليات المرجعية.. والسرّ في ذلك هو أنهم يُسرعون في أعمالهم.

الأمر الثالث يتمثَّل في ضبط الوقت وتنظيمه، وقد درستُ حياة كثير من العظماء، وكنتُ أُدقِّق في سرّ نجاحهم، فاكتشفت أنهم يشتركون في صفة واحدة، وهي (ضبط الوقت).

ربما تتدخَّل عوامل مُختلِفة في حياتك لا تدعك تُنظِّم أوقاتك، فتتمرَّض مثلاً ولا تستطيع النوم فتضطر إلى أن تنام صباحاً، فإذا فسد تنظيمك لوقتك فحاول أن تُعيد هذا التنظيم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن علينا محاربة الكماليات والتَّوافه؛ فالكثير من الناس ينشغل بإصلاح هِنْدامه بشكل مُبالَغ فيه، وبالتفتيش عن نوع الملبس الذي يرتديه، وعن نوع البِضاعة التي يريد اقتناءها، وبالتالي فإنه يُنفِق عمره في التَّوافه، فلنُحاول أن نحذف هذه التَّوافه من حياتنا، وإذا كان هناك تعارض بين وقتك وبين الاهتمام بأمور لا تُغنيك فدعها.

ومن أكثر تلك التَّوافه شيوعاً الجدل، والجلوس في مجالس

البَطَّالين، والاجتماعات المُطوَّلة التي لا تُغني ولا تُسمن من جوع.. في حين أن الوقت يمرّ، فنُهدِره فيما لا طائل من ورائه؛ في حين أن بإمكاننا بدلاً من ذلك التضييع للوقت أن نقرأ القرآن الكريم، أو أن نُطالِعَ ونُؤَلِّفَ.. فلماذا نُضَيِّع هذه الأوقات الثَّمينة؟

إننا جميعاً مُبْتَلَون بمجالس البَطَّالين، فهم ليسوا من طبقة مُعَيَّنة. أنا وأنت إذا جلسنا وصرفنا من الوقت أكثر من اللازم، فإننا نُصبِح من البَطَّالين.

إن الإنسان يعلم أن عليه أن يُقَدِّم خدمة، وأن يُعطي من نفسه شيئاً، وأن يُنتج، وأن عليه أن يكون في حالة السعي والحركة.. وهذا الهدف يتحقَّق إذا نظَّمنا أوقاتنا وضبطناها وأسرعنا في كافَّة الأعمال؛ في الدراسة، والمُطالعة، والانتقال من مكان إلى مكان.

وللأسف فإن الكثير من الناس يَشْكُون من قِلَّة الوقت، في حين أن اللَّه تعالى منحنا أربعاً وعشرين ساعة، وفي كل ساعة من هذه الساعات نستطيع أن نقومَ بأعمال كثيرة، ونُنْجِزَ مسؤوليات عديدة.

إن ضياع الوقت سببه أنك لا تُنظِّم وقتك هذا، ولا تستغله؛ وعلى سبيل المثال فإن البعض يستطيع أن يقرأ عشرة آلاف كلمة في ثانية واحدة، وهناك مُسابقات تُجرى في بعض شبكات التلفزيون الأجنبية على سرعة المطالعة، فترى المُتسابق يُلقي نظرة واحدة على الصحيفة وإذا به قد طالعها كلَّها.

وهكذا فإن التنظيم والسرعة هما سرّ نجاح الإنسان. والإنسان المُؤمن يجب أن يكون أنموذجاً لغيره في هذا المجال، فهو يشعر بشكل مستمر أنه مُطالب في يوم القيامة بأن يرجح كفَّة حسناته وأعماله الصالحة من خلال عدم الاستهانة بالوقت، والقيام بالأعمال الكثيرة فيه مهما كانت بسيطة.



التوكل على اللّه مصدر الفاعلية

عندما نقرأ آيات القرآن الكريم فلابد من أن نقرأها بصورة تَتَّصل بحياتنا العملية، فلا ندع فجوة بينها وبين واقعنا المَعِيْش، سواء كانت هذه الفجوة فكرية أم سُلوكية.

وللأسف فإن هناك بعض الناس يقرؤون القرآن وكأنه أُنزل لغيرهم، وكأن آياته تتحدَّث عن رجال مضوا، ولا صلة لهم بالحاضر، كما أن البعض الآخر يقرأ القرآن وهو لا يرى نفسه في مستوى فهم هذا الكتاب،فيسدّ أبواب الفهم على نفسه. وهناك بالإضافة إلى ذلك فريق يقرأ القرآن ويفهم آياته، ويتدبَّر فيها، ولكنه يجعل بينه وبينها حجاباً مستوراً من شهواته وأهوائه وعاداته وقناعاته الفكرية التي لا يُريد التنازل عنها، والتبريرات التي لا يُريد التخلُّص منها.

أما المُؤمن الحقيقي فإنه يتلو القرآن ليشبع نفسه بآياته نوراً وهدى وإيماناً وإرادة وعزماً.. فهو يقرأ آيات القرآن ليُحوِّلها إلى برنامج عمل وبصائر، وإلى رؤى ومناهج. فالمفردات التربوية

التي نجدها في القرآن الكريم أو في السُّنَّة الشريفة لابد أن تتحوّل إلى قاعدة انطلاق في حياتنا، ومنهاج عمل.

منطلق جميع القيم

ومن هذه المفردات التي تبرز في الآيات القرآنية هي مفردة التَّوكُّل على اللَّه سبحانه، التي يعتبرها الإسلام مُنطلقاً لسائر القيم، فهي قاعدة الانطلاق إلى العالم الذي يُحَلِّق منه الإنسان إلى الآفاق البعيدة.

فالتوكُّل على اللَّه هو رأس كل خير، وسبب كل فضيلة، والتوكُّل على اللَّه والثقة بنصره بداية انطلاقة الإنسان، لأنه عندما يجد نفسه في صِراع مُحتَدِم بين شهواته وعقله، وبين عادات مجتمعه ورؤى علمه ومعرفته فحينئذ لا يملك إلَّا قدرة واحدة يستطيع التشبُّث بها، وهي أن يُغيِّر المعادلة لصالحه، ويحسم الصِّراع لمصلحته، وهذه القوة هي قوة اللَّه تعالى. فإذا توكَّلتَ على اللَّه، وعرفتَ بأنه هو القادر على إنقاذك، واستعذت به، واستجرت بفضل رحمته، فإنك ستجد النصر الإلهي ينهال عليك، ويُحيط بك، ويُعطيك قوة لا يُمكن لأي قوة في الأرض أن تُواجهها.

ماذا يعني التوكل على اللَّه؟

ترى ماذا يعني التوكُّل على اللَّه في برنامج الإنسان؟

إنه يعني أولاً إسقاط التبرير، فنسبة كبيرة من التبريرات التي

يتشبَّث بها الإنسان ويخسر بسببها نفسه ناجمة من هذه الصفة السيئة؛ من انعدام ثقة الإنسان بربِّه، وبالتالي انعدام ثقته بنفسه، وعدم قدرته على أداء المهام الرسالية.

ترى أوَلَسنا نعتقد أن اللّه يُحِبُّ المُتوكّلين، أوَلَسنا مُتَّصلين به -تعالى- فلماذا التأخُّر والتردُّد والإِحجام إذن؟

النبي موسى منار التوكل

النبي موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما كان يبحث في الصحراء عن جذوة نار لأهله في الظلام، ولعلهم كانوا قد ضلّوا الطريق، فهو لا يعرف ماذا يصنع.

لقد كان النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعيش هذه الحالة؛ ظلام، برد، صحراء، وضلال عن الطريق، فهو لا يعرف إلى أين يمشي، يُريد أن يعود إلى وطنه الذي ما يزال تحت سلطة الطاغوت فرعون، وقد أتهم النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالجريمة من قبل، وحكم عليه بالإعدام.. كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب جذوة نار، فإذا به يجد نفسه أمام شجرة فيها بدل النار نور، وبدل الهداية إلى طريقه في تلك الصحراء هداية إلى ربِّ العالمين، وبدل جذوة النار مشعل الرسالة.

وهكذا ذهب النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليأتي بالنار فجاء بالرسالة، وأيّة رسالة؟ رسالة أُولي العزم، رسالة غيَّرت تاريخ البشرية. كل ذلك حدث بفضل توكُّله على اللّه تعالى، وثقته به، وتسليمه له.

ثم بعد ذلك خاطبه اللّـه تعالى قائلاً: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[1]. فذهب بلا تردُّد، وهو يعلم أن ليس هناك نظام أو جماعة أو حزب يقف وراءه».

إذن لنجعل من النبي موسى بن عمران عليه السلام قدوة لنا؛ هذا النبي الذي تُحدِّثنا عنه الآيات القرآنية قائلة: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾[2]. كان يُفتِّش ليلاً عن مظلوم ينتصر له. وهذه هي روح الإنسان المُتوكِّل على اللّه تعالى.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[3].

لقد كانت هذه الظاهرة تتكرَّر في تلك البلاد؛ رجل فرعوني يعتدي على رجل من بني إسرائيل، فإذا بموسى عليه السلام يقضي على الرجل الفرعوني بلكمة واحدة، بعد أن أمر الشيطان الإنسان المقتول أن يعتدي على إنسان مُستضعَف.

الاستغفار والتواضع للّه عند النصر

لقد حدث كل ذلك لأن النبي موسى عليه السلام كان يعتمد على اللّـه، ويتوكَّل عليه، ويعلم أن النصر منه. فالإنسان الذي قُتِلَ إنما

(1) سورة طه، آية ٢٤.

(2) سورة القصص، آية ١٥.

(3) سورة القصص، آية ١٥.

قُتِلَ بقوة اللَّه التي أجراها في كفِّ موسى، وأن النبي موسى عليه السلام كان يعلم أن إيمانه وتحدِّيه للطاغوت إنما هما من اللَّه تعالى، ولذلك لم تأخذه حالة الغرور والكبر، بل تواضع لربِّه، إلى درجة أنه رأى نفسه ظالماً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[1].

وهذا السلوك هو من الواجبات الشرعية، فعلى الإنسان أن يستغفر ربه عند النصر بدليل قول اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[2].

فلنحمد اللَّه، ونُسبِّحْه، ولا ننسى أن نستغفره، فالإنسان يُصاب بالغرور حين النصر، ولذلك جاء التأكيد على الاستغفار والإنابة إلى اللَّه تعالى في الكثير من الآيات كقول تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3].

فحتى الفتح المُبين يجب أن يقترن بالاستغفار.

فالغرور والكبر عندما يستبدَّان بالإنسان يُفقدانه أعزّ ما لديه، وهو التوكُّل على ربِّه. فالإنسان عندما يَتَّكِلُ ويعتمد على نفسه ويزعم أنه هو الذي يُسبِّب الأمور، يسلبه اللَّه قوة التوكُّل، فَيَكِلُهُ

(١) سورة القصص، آية ١٦.
(٢) سورة النصر، آية ١ - ٣.
(٣) سورة الفتح، آية ١ - ٢.

إلى نفسه. وهذه هي أعظم مُصيبة يُمكن أن تنزل على الإنسان، كما يُشير إلى ذلك الإمام جعفر الصادق عليه السلام في دعائه: «**رَبِّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً**».[1]

وهكذا فإن الحركة الإسلامية إذا بلغت القمة السامقة، وأصبح كل واحد منا مُتوكّلاً على اللّه لفظاً وسلوكاً، وإذا أصبحت المجموعات الإسلامية في هذا المستوى الرفيع من الثقة بالنفس، فحينئذ سوف تنفجر في داخلها ينابيع القوة، لأنها ستكون مُتوكّلة على اللّه، فتسقط التبريرات، ويبحث كل واحد منا حتى يحصل على النتائج السليمة والطرق الصحيحة للعمل، فيكتشف طاقاته.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢، ص٥٨١.



القسم الرابع

المرأة



مقاومة الهوى

من الأهداف المهمة التي لابد أن يتطلّع إليها الناس جميعاً، الخروج عن الذات، والتحليق في أفق الحقيقة. فالذات البشرية سجن يجب على كل إنسان أن يكسر أبوابه وقيوده ليخرج منه، وإذا ما بقي الإنسان في ذاته، وتمحور حول هواه، وعبد نفسه، واتّخذها إلهاً.. فإن كل ذلك يُؤدي به إلى ألّا يرى شيئاً إلّا من خلال ذاته، ولا يسمع شيئاً إلّا من خلال نفسه ومصالحه، وبالتالي فإنه سوف لا يستطيع أن يرى الحقيقة قطّ، وستستمر به هذه الحالة من الغفلة حتى يُفاجئه ملك الموت، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا**»[1].

وحينئذ يصحو الإنسان، ويكتشف أن كل ما رآه وسمعه كان ضلالاً في ضلال، وأنه كان بعيداً كل البعد عن الحقيقة؛ فكان يعبد نفسه مُتصوَّراً أنه يعبد اللّه، ويعبد مصالحه وهو يزعم أنه يعمل لمصالح الأمة.. وكم ستكون خسارة الإنسان كبيرة وفادحة إذا ما

(١) خصائص الأئمة، الشريف الرضي، ص١١٢.

لم يتنبه إلى ذلك إلّا بعد الموت، كما أشار إلى ذلك، ربنا سبحانه في قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

فالإنسان يتصور في فترة من فترات الحياة أنه يعمل حسناً، وعندما تنتهي فرصة الحياة إذا به يجد نفسه أمام الحقيقة المرة، في حين أنه كان من المفروض فيه أن يكتشفها قبل ذلك ولو قبل يوم واحد من مجيء ملك الموت، هذا المجيء الذي لا يُرد، ولا يُمكن لباب أو جدار أن يدفعه عن الإنسان.

وهكذا فإن الإنسان يتوهم أنه يُحسن صنعاً، ويعمل صالحاً ولكنه مُتورِّط وغارق حتى قمّة رأسه في الرذيلة، فكيف نخرج من هذه الورطة؟

إن الخروج منها موكول بأن نخرج من سجننا، ولا بد من أن نقوم بعمل جبّار حتى نخرج من هذا السجن، ونكسر القيود، ونحطم الأبواب، ونطارد الشياطين الذين هم حراس سجن الذات، فإن استطعنا ذلك فسيكون أمامنا خير الدنيا والآخرة. والآية الكريمة في سورة الحشر تقول:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الكهف، آية ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) سورة الحشر، آية ٩.

إن تجربتنا في الحياة لا بد أن تنطلق من هنا، وإرادتنا إنما نُجرِّبها في هذا الموقف، فإن خرجت من سجن ذاتك رأيت الحياة، وانكشفت لك الحقائق، وحينئذ لا تنظر إلى الحياة من زاوية نفسك؛ فالحياة واسعة، وآفاقها متعددة.

فليس من الصحيح أن ننسب كل شيء إلى أنفسنا، في حين أننا لا نمتلك من الدنيا شيئاً.

كيف الخروج من سجن الذات؟

وعلى هذا فإن السؤال المهم المطروح هنا هو: كيف يخرج الإنسان من سجن الذات وينطلق في رحاب الحياة، ويعيش مع الجميع وللجميع؟

أولاً: إدراك الحقيقة منذ البدء

يُمكن للإنسان أن يفعل ذلك إذا أدرك الحقيقة منذ البدء، وأدرك أنه يعيش في سجن. فالذي يعيش في السجن ويزعم أنه يعيش في قصر مُنيف لا يُمكنك أن تُقنعه بضرورة الخروج من هذا القصر. فلابد أن يعرف الإنسان أولاً أنه يعيش في سجن، لكي يُحْدِث بينه وبين هذا السجن فصل حاسم. والآيات القرآنية تسعى من أجل إحداث هذا الفصل عندما يأمرنا اللّه تعالى أن نتَّخذ الشيطان عدوًّا، لأنه عدوٌّ يُحاول أن يَنْفُذَ في نفوسنا وقلوبنا ليُوسوس فيها دائماً.

ثانياً: المبادرة إلى تطبيق البرنامج العملي

فالإنسان عندما يدخل السجن يُبادر إلى التفكير في كيفية الخروج والهروب منه، ونحن أيضاً يجب أن نضع برنامجاً للعمل، أو بعبارة أفضل: أن نُطَبِّق البرنامج الذي أعدَّه اللَّه تعالى لنا. فالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة كلها من المُمكن أن تكون برامج، بشرط أن نكون جِدِّيين في تطبيقها، وألَّا نمرَّ عليها مروراً عابراً. فإذا ما قرأنا آية في الزهد، أو حديثاً في الرغبة عن الدنيا، أو عبرة تاريخية عن إحسان الإنسان إلى الناس، والتضحية من أجل المحرومين.. فيجب ألَّا نمرَّ على ذلك مروراً عابراً، بل يجب علينا أن نقف لحظات، ونُفكِّر في كيفية تطبيق تلك الآية أو ذلك الحديث.

وفي هذا المجال هناك بعض الأمور المُهِمَّة التي أودُّ الإشارة إليها، وهي:

١ - التخلص من عادة الإسراف

فالإنسان المُسرف لا يُمكنه أن يكون خادماً للأمة. فالإنسان الذي يُنفق على سجائره ما تُنفقه عائلة كاملة على نفسها في بنغلادش أو الصومال، هذا الإنسان هل يستطيع أن يُفكِّر في المحرومين؟

قرأت في تقرير عن الولايات المُتَّحدة الأمريكية أن هناك

أكثر من مليون بائس، والبائس هو الذي لا يملك عملاً ولا راتباً ولا مسكناً، بل ينام في الشوارع ويقتات على النفايات، ولا يستطيع أن يحمي نفسه من البرد، وقد مات ثلاثمائة إنسان أمريكي من شدَّة البرد. وهكذا فإن الذي يموت نتيجة البرد هو ليس الحُكَّام والرؤساء، فهؤلاء يعيشون في القصور المُجهَّزة بوسائل التَّرف والرَّاحة، بل إن الذين يموتون هم أولئك البؤساء الذين يعيشون في قوارع الطرق، والبنايات المُهَدَّمة.

وبناءً على ذلك فإن الإنسان المُبَذِّر لا يُمكنه أن يكون شَكوراً، بل هو كافر بنعم اللَّه تعالى، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[1]. كما أنه لا يستلذ بنعم اللَّه، فهو يأكل قسماً من طعامه والباقي يرميه في القُمَامة، فيُحرِّم اللَّه عليه لذة الأكل.

وهكذا فإن الإنسان المُسرف لا يستطيع أن يعيش مستقلاً، ولابد له أن يعيش في فلك الأغنياء والطُغاة والجبابرة.. فالإنسان الذي يكتفي بطعامه القليل، ومسكنه المتواضع، لا يُمكن لأي طاغوت أن يُهَدِّده ويستعبده بأساليب الإغراء، لأنه -أساساً- لا يُحِبُّ العيش في القُصُور، وتناول الأطعمة الفاخرة.

عَوِّدْ نفسك على الاكتفاء والقناعة بالشيء القليل، وإن كانت لديك زيادة فأنفقها في سبيل اللَّه تعالى، فقد كان الأئمة عليهم السلام

(١) سورة الإسراء، آية ٢٧.

يعيشـون دوماً هذه العيشـة الزاهدة، فكانوا يكتفون بالخبز والملح بالرغـم مـن امتلاكهـم للأمـوال الطائلة التـي كانـوا يُنفقونها على الفقراء والمساكين.

وأولئـك الذيـن يُسـمِّيهم القـرآن بـ«أصحاب الجنـة» كانوا يمتلكون بستاناً، ثم استولى عليهم التَّفكُّير في الدُّنيا إلى درجة أنهم أرادوا أن يَحْرِمُوا الفقراء والمساكين من فضل ما أنعم اللَّه عليهم، فحرمهم اللَّه بعد أن مرّ عليهم طائف فيه نار وريح شديدة أحرقت كل ذلك البستان، فلم يحصدوا منه سوى الحسرة والندامة.

٢- تنمية ملكة الزهد في النفس

إن الزهـد هـو الصفـة المقابلة للإسـراف، فالـذي يزهد في الدنيا، ويرغب عنها وعن بهارجها، ويهتمُّ بالآخرة وبتزكية نفسـه، والذي يرفـض نعيم الدنيا، فإنه في الحقيقة يعيش حالة من الصوم الداخلـي؛ فمثـل هـذا الإنسـان يُطَلِّـق الدنيـا ثلاثـاً، ويهجرها من غيـر رجعة.. وبمثـل هذه الطريقة اسـتطاع المؤمنون الحفاظ على اسـتقلاليتهم، فقد زهـدوا في الدنيا برغم كل الصعـاب التي كانوا يلاقونها.

٣- الإحسان إلى الناس

إن الإحسـان يبدأ صغيـراً ثم ينمو عند الإنسـان حتى يُصبح عادةً له. وأفضل طريقة لدخولك في قلوب الناس أن تُحسن إليهم،

فإن وجدت فقيراً فعليك أن تذهب إلى الأغنياء وتأخذ منهم أموالاً تُعطيها للفقراء. فبعملية الإحسان ستكون قائداً للناس، وبذلك تستطيع أن تدعوهم إلى الدين عبر هذا الأسلوب.

٤- النشاط والحيوية

فالإنسان الخامل الكسول لا يُمكنه أن يعيش مُستقلاً، فهو مُضطر إلى أن يدور في فلك الآخرين، لأنه جعل نفسه محتاجاً للناس؛ والحديث الشريف المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**احْتَجْ إِلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَسِيرَه**»[1].

ولو أن بلادنا الإسلامية كانت مُكتفية اقتصاديًّا وعسكريًّا وصناعيًّا... لما احتاجت إلى الدول الغربية لِسَدِّ حاجاتها، لأنها لم تكن نشيطة، ولم تكن تمتلك الحيوية الكافية والنشاط.

وهكذا لابد للإنسان من أن يخرج من سجن الذات، ويُطلق طاقاته ومواهبه، ويُحرِّك قابلياته ويُفجِّرها.. أضف إلى ذلك أن الإنسان النشيط المُتحرِّك الذي لا يَكِفُّ عن الحركة والتَّحرُّك يكون عادة محبوباً عند الناس.

ولا يغيب عنا أنه بحد ذاته هو مظهر يَدُلُّ على الحيوية والنشاط، ويَدُلُّ على أن الإنسان لا يعيش في ذاته.. فليكن منظرنا يَدُلُّ دوماً على الحيوية والنشاط، ولا يكن الواحد منا ميتاً بين

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد، ج١، ص٣٠٣.

الأحياء، بأن يمشي على الأرض دون أن يكون له أي أثر إيجابي، أو فعل مفيد.

ومن الطبيعي أن الإنسان المُمْتلِئ حيويةً ونشاطاً يُحِبُّ الإحسان إلى الآخرين، ويُحِبُّ الناس، ويَهْرَع لمساعدة الناس.

وهكذا يجب ألَّا تطلب حاجة من أحد، وإذا طُلِبَتْ منك حاجة فسارع إلى تنفيذها، وبهذه الطريقة سوف تخرج من سجن الذات.

وعلى هذا فلابد أن نوفر كل تلك الصفات في أنفسنا. فالإنسان الخامل لا يُمكنه أن يرى الحقيقة، لأنه يُفَكِّر دوماً في نفسه، وعلينا أن نتخلَّص من هذا الخمول من خلال تطبيق البرامج التي حدَّدها لنا القرآن الكريم في مجمل آياته البينات.

تحدي اليأس

على الرغم من وجود اختلاف كبير بين علماء الكلام حول حقيقة الإيمان، إلّا أن الواحد منا عندما يتدبَّر في آيات الذكر الحكيم، وروايات النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام يصل إلى حقيقة جلية؛ وهي أن الإيمان نور يتوهَّج وينبعث في قلب الإنسان، ومن نتائجه ومردوداته أن يصل بالإنسان إلى حالة التسليم بالحقيقة، والتسليم بالحقيقة يؤدي بدوره بالإنسان إلى تكييف واقعه معها.

والإنسان المُؤمن هو الذي يعترف بالحق، ويتحدَّى الضغوط التي تمنعه من العمل بهذا الحق. وعندما تُذكِّرنا آيات القرآن بأن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، فإنما تُريد أن تُبيِّن لنا أن الإيمان قمة شاهقة لا يستطيع بلوغها الّا القليل. فالإيمان ليس من طبيعة الإنسان، بل الجهل طبيعته، وطبيعة الإنسان هي الانقياد للهوى لا التسليم للحق، ومن طبيعته أيضاً عدم الإيمان؛ أي عدم الرضوخ للواقع، ومحاولة التشبُّث بالأوهام والخيالات.

والإنسان لا يُمكن أن يبلغ الإيمان الذي يُمثِّل القمة الرفيعة

والمجد السامي في مسيرة البشر إلّا بعد الجهد والسعي، والاستقامة والتحدّي.. لتتكامل بعد ذلك حضارة الإنسان، وعندما يصل إلى مرحلة الإيمان ستتبلور في داخله حالة معينة تجعله قادراً على تنسيق حياته مع حقائق الكون، في حين يعيش الكافر منعزلاً عن هذه الحقائق، ومتقوقعاً في أهوائه وشهواته، وغير قادر على فهم حقائق الكون لأنه في الأساس لم يعترف ولم يُؤمن بها.

النبي موسى مثال التحدي

ويُذكّرنا القرآن الكريم بِقِصَّة فرعون والنبي موسى عليه السلام، هذه القصة التي يتصارع فيها طرفان؛ الطاغية من جهة، والنبي موسى عليه السلام من جهة أخرى. فموسى يُمثّل الإنسان المُستضعَف الذي اجتمعت في حياته جملة سلبيات ظاهرية؛ فلقد طُرِدَ من بين قومه، وعانى القهر والاستضعاف ضمن أُمَّة ذليلة مهينة مُستضعَفة حسب مفاهيم وقيم ذلك العصر. ويتحدَّث القرآن عن هذا الصّراع بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[1].

هذه هي حقيقة الإيمان، فموسى بن عمران عليه السلام كان يَغْمُره الإيمان العميق بالله تعالى، بتلك القُدرة، والقُوة المُطلقة المُهيمنة على مُجريات ومُقَدَّرات هذا الكون الرحيب، بذلك الربِّ الذي استوى على العرش، ودبَّر كل شيء في السماوات والأرض.. كان

---

(١) سورة الشعراء، آية ٦١ - ٦٢.

يُؤمن بأن اللَّه هو الرحمن الرحيم الذي خلق الإنسان ليرحمه لا ليُعَذِّبَه، فهو الحق الذي يُحِبُّ الخير والفضيلة والإيمان، ويُحِبُّ المؤمنين المُتوكِّلين عليه.

وآيات القرآن المُحكَمات تُشير إلى الإيمان العظيم والعميق لموسى بربه، وكيف أنه قال بشجاعة وإصرار وإيمان: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[1]. فهو عليه السلام على يقين من أن ربَّه هو دليله ونوره الذي يستهدي به في الطريق الذي يسلكه، الطريق المُستقيم الذي يُنقذه من نَيْرِ الطَّاغية (فرعون).

وبعد أن فاض الإيمان في ضمير النبي موسى عليه السلام، وتسامت عنده حالة التَّوكُّل ورفض الخضوع للظُّروف السلبية، وتجسَّدت حالة التحدِّي فيه والتي حَدَتْ به إلى الرفض العلني سلوكاً وفعلاً. بعد ذلك، أوحى اللَّه تعالى إلى النبي موسى ليخرج من محنته: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[2]، فتحوَّلت أمواج البحر إلى جبال ثابتة وكأن الماء قد تجمَّد من غير برودة، وتحوَّلت تلك الأمواج الهادرة إلى طُرُق آمنة سالكة لهذه المجموعة المُستضعَفة من الناس.

ولكن لم يحدث قطُّ أن سمعنا بحدوث مثل هذا منذ بدء الخليقة حتى اليوم، فما حقيقة ما حدث، وهل هو تغيُّرات طبيعية أم ماذا؟

---

(١) سورة الشعراء، آية ٦٢.

(٢) سورة الشعراء، آية ٦٣.

لو كانت هناك تغيُّرات طبيعية جيولوجية حدثت في ذلك البحر لما عرفت هذه التغيُّرات فرقاً بين موسى وبني إسرائيل من جهة، وفرعون وجنوده من جهة أخرى، ولكان باستطاعة الجميع السير كما يحلو لهم في هذا الطريق البحري المُعَبَّد.

كَلَّا وألف كَلَّا، لم تكن هناك أيّة تغيُّرات جيولوجية حدثت، إنما كانت إرادة اللَّه فحسب، كما يُشير ربُّنا سبحانه تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴾[1].

فالقضية لا ترتبط بالطبيعة، وإنما هي مُرتبطة بإرادة اللَّه سبحانه وتعالى، وهي آية مِمَّا لا يُحصى من آيات القُدرة والعظمة الإلهية في الكون، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾[2].

مصدر انعدام الإيمان

وعلى الرغم من ذلك، فإن أكثر الناس تراهم عديمي الإيمان، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[3]. فمُشكلة عدم إيمان البعض لا تعود إلى قِلَّة الآيات، بل إلى وجود الحالة السلبية المُتفشِّية والمُتمكِّنة من نفوس هؤلاء (عديمي الإيمان)، بالإضافة إلى ما تتضمَّنه هذه الحالة من التشاؤم والتعنُّت والرفض المبني على أسس مغلوطة.

(١) سورة الشعراء، آية ٦٥ - ٦٦.
(٢) سورة الشعراء، آية ٦٧.
(٣) سورة الشعراء، آية ٦٧.

هذه الحالات السلبية هي في الواقع جذور تخلُّف أيّة أُمّة، وسبب رئيس لكفر الإنسان وضلالته وتعاسته وشقائه. فالقرآن عندما يقول: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]، فإنما هو يُقرِّر هذه الحقيقة ويُؤكّدها.

أين نحن من تعاليم القرآن؟

هذه الحالة تدفعنا لأن نتساءل: إذا كان الأمر كذلك فأين نحن إذن، وأين هو عالمنا الإسلامي؟

فعلى الرغم من وجود عشرات الشواهد على أن يد الغيب تتدخَّل في قضية الصِّراع بين الحق والباطل، وفي اللحظات الحاسمة والأوقات الحرجة من هذا الصِّراع، نرى أن كثيراً من الناس يشكُّون في أنفسهم، وفي ضرورة الصِّراع والعمل والجهاد، بل وفي وعد اللّه المؤمنين بالنصر، وكأن القرآن لم يقل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[2]، وكأن اللّه تعالى لم يُحدِّثنا قائلاً:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

(١) سورة الشعراء، آية ٦٧.
(٢) سورة محمد، آية ٧.

لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1].

ترى أين نحن من كل هذا الذي يُخاطبنا به القرآن؟

إن ما ذكرناه كان شواهد تاريخية، وحقائق واقعية في الماضي والحاضر قد شهدها كل منا بوجدانه، ومع ذلك ما يزال فينا الناس يعيشون حالة من السلبية المُستحكِمة.

ومن الطبيعي أن نجد الشيطان يُؤيِّد هذه الحالة في نفوسنا، كما أن النفس الأمّارة تُسوِّل لنا وتُبرِّر تقاعسنا بأشكال مُختلِفة، وتُحاول تضخيم السلبيات، والنقائص المنتشرة في مجتمعنا من حولنا. فلو أقدم -مثلاً- أحد الأشخاص على عمل ما كتأليف كتاب، أو تأسيس مشروع خيري.. لرأينا السلبيين يُفتِّشون في هذا العمل عن شيء ناقص فيه ليُضخِّموه، وليستصغره بالتالي الناس.

إن هذه الحالة مُستشرية في مجتمعنا بصورة مُريعة، فمُعظم الناس اليوم قد سقطوا في شِراك الشيطان. وهذا المسلك المُنحرِف لا يُصحِّح الوضع المُتردِّي فحسب، وإنما يزيده تردياً وتخلُّفاً.. وعلى هذا يجب علينا قياس الأمور بمقياس عادل، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.

والروح السلبية قد تتمثَّل في صور عديدة وهي تُدمِّر صاحبها في جميع الأحوال، فقد تجعله مثاليًّا إلى أبعد الحدود، مما يُؤدِّي به

(١) سورة الحج، آية ٣٩-٤٠.

فيما بعد إلى الاصطدام بالحقائق، والانحدار نحو هاوية السُّقوط، أو قد تجعل منه بُوقاً إعلاميًا فعَّالاً للسُّلطة التي تُمثّل الشيطان، فتُشجِّعه على الانتقاص من شأن الناس، وذكر عيوبهم، والتَّفكُّك بين أفراد المجتمع، والشيطان يمدُّ لهذا الإنسان ويُشجِّعه على ذلك أيّما تشجيع.

وبعض الناس يعمد إلى تغليف هذه الروح السلبية بحالة من المثالية، فإذا ما أُمِرُوا بالقيام بفعل أو نشاط نجدهم يُعظِّمونه حتى لا يستطيعوا الإتيان به، وهم بذلك يُخالفون قول الرسول الأعظم ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوْا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوْهُ»[1]. كما أن القاعدة المعروفة تقول: «الْمَيْسُوْرُ لاَ يَسْقُطُ بِالمَعْسُوْرِ».

الاعتدال في فهم الأمور

كل ذلك يدفعنا لأن نكون مُعتدلين في فهم الأمور، وقضاء الأعمال.. فلو كان بإمكان الواحد منا أن يكتب ورقة علم واحدة فليكتُبها دون استصغار، ذلك لأنه سيُخلِّفها رصيداً ثميناً من بعده في الدنيا، وحجاباً له عن النار في الآخرة. أما أن نُؤطِّر الأمور بأُطُر عجيبة فنُضخِّمها أو نستصغرها، فهذا سلوك خاطئ، لأن الإنسان عندما ينظر إلى عمل ما على أنه كبير فإنه سيتوانى عن إنجازه، وإن رآه صغيراً فإنه سيعتقد بلا جدوائيته.

(١) مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي، ج٦، ص٥٨٣.

وهذه الظاهرة تُولِّد حالة السلبية عند الفرد وبالتالي حالة التشاؤم، ثم تتعاضد هذه الحالة السلبية مع سائر الضُّغوط الخارجية والداخلية المُوجَّهة إلى النفس الإنسانية.

وهناك صنف آخر من الناس نراه يُحيط نفسه بهالة من التَّدَيُّن فيصوم ويُصلي ولكنه لا يحمل في داخله أي معنى من معاني التَّدَيُّن؛ فهو ينظر إلى الناس نظرة استهزاء واحتقار، وكأنه يملك في يده مفاتيح الجنة، فينتقص منهم، ويكشف عن عيوبهم ومساوئهم، ويشمت بهم.

إن واجبنا جميعاً يتمثَّل في أن ندعو الناس إلى الصِّراط الإلهي القويم بأسلوب ليِّن طيِّب، كما دعانا إلى ذلك ربنا سبحانه في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1].

ومع أن الناس لم يستطيعوا قطُّ بُلُوغ مستوى الأنبياء والأئمة عليهم السلام، إلَّا أننا لم نَرَ هؤلاء الأنبياء والأئمة احتقروا الناس يوماً لأنهم دون مُستوى علمهم، ولو فعلوا ذلك ما التفَّ حولهم أحد. فعلينا أن نجعل من الرسل وأولياء الله مناراً لنا في هذا الطريق المُدْلَهِم، حتى نستطيع بمعونتهم أن نُعالج نفوسنا، ونمحو سلبياتنا.

وعلينا أن نحترم الناس بقدر ما يُؤَدُّون من عمل وخدمة في

(١) سورة الحج، آية ٤٠.

سبيل اللَّه، وأن نُحْسِن الظن بهم لأن سوء الظن يمثّل روحاً سلبية تَحِلُّ مَحَلَّ روح الإيمان في نفوسنا.. وهذا السلوك لا يصدر إلَّا من الأشخاص الذين تأصّلت عندهم حالة التعالي.

لنحذر من الاستهزاء بالناس

كما وعلينا ألَّا نستهزئ بالناس ونعتقد أننا من أهل الجنة وهم جميعاً من أهل النار ولو كُنَّا في قمة الإيمان. فلنا في التاريخ عبرة، حيث يقصُّ علينا كيف أخلد إلى الأرض أولئك الذين كانوا مُمتلِئين بروح التعالي والأنانية والغرور والفخر رغم أنهم كانوا في البدء أفضل الناس. فلقد جعل اللَّه هؤلاء يخلدون إلى الأرض، حتى شبَّههم بالكلب كما شبَّه (بلعم بن باعوراء) وكثيراً غيره. ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾[1].

فينبغي علينا أن نكون دقيقين في علاقاتنا مع الناس، ولا ندع هذه الروح السلبية تعزلنا عنهم فنتصوَّر أن الجميع في النار. صحيح أن أهل النار أكثر عدداً من أهل الجنة، ولكن هذا لا يُخوِّلنا الصلاحية لأن نحكم على الناس حسب مقاييسنا الشخصية، بل العكس علينا أن نتواضع لهم، ولا نتَّهمهم.

وهناك أشخاص نراهم يعملون من أجل هدف واحد، وخط مشترك، ولكن كل واحد منهم يتَّهم الآخر، ويُضيِّق عليه بافتراءاته

(١) سورة الأعراف، آية ١٧٦.

ليتفرد -حسب زعمه- بالجنة، غافلاً عن أن حلاوة الجنة في أن يكون مع الآخرين. كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[1].

وهذه الحالة نابعة من ضيق الأفق وحراجة الصدر، وسوء الظن بالآخرين، وحالة الجمود التي طالما نجدها في الساحة.. ولإزالة هذه الحالة علينا أن نأخذ الملاحظتين التاليتين بنظر الاعتبار:

١- أن نؤمن بنصر الله إيماناً حقيقيًا، وأن نكون إيجابيين في أطروحاتنا، فيأتينا بذلك نصر الله.
٢- ألّا نجعل علاقاتنا مع الناس علاقات سلبية، فقد يكون أولئك الناس البعيدون عن الساحة أفضل من المُجاهدين أنفسهم، وبالذات في بعض البلاد التي تتركّز فيها ضُغوط الطّاغوت وسيطرته وإرهابه.

وعندما يَمُنُّ الله تعالى علينا بالنصر، علينا أن نفتح أبواب التغاضي والتسامح والصفح تأسياً بالرسول الأكرم ﷺ الذي عفا عن المشركين حين فتحه لمكة، ودخول الناس على أثر ذلك في دين الله أفواجاً.

فالمطلوب تكوين علاقات اجتماعية سليمة، فلا يَحْسُن أن نُحصي على الناس زلّاتهم وأخطاءهم، بل علينا أن نتغاضى عنهم

(١) سورة الحجر، آية ٤٧.

إلّا المُجرمين الذين لا تنفع معهم نصيحة، فهؤلاء يجب أن يُلاقوا جزاءهم.

إن هدف الإنسان المُسلم مَنْ تحرُّكه ونشاطه، من نهضته وتضحياته.. هو إنقاذ الناس، فإذا كره هذا الإنسان الناس فكيف سيُدافع عنهم؟

وعلى هذا فإن الموضوع الأساسي هو أن نُؤمن بنصر اللّه، وأن نتسلّح برؤية إيجابية واقعية في حياتنا، حتى نُقاوم بذلك عاملي اليأس والروح السلبية في داخلنا.



أسباب التخلف

الوقائع والأحداث التاريخية برهنت من خلال أكثر من تجربة أن الأمة التي يدرك كل فرد من أفرادها أن السياسة جزء من واقعه المَعِيْش، وأن النِّظام والسُّلطة والحُكم والإدارة لا يُمكن فصلها عن هذا الواقع، مثل هذه الأُمَّة لن تموت أبداً.

فالأمة الواعية في سياستها وثقافتها، والناشطة في أداء دورها الحضاري.. لا يُمكن لأيٍّ كان من الطُّغاة، وذوي الأحلام المريضة والرغبات الحمقاء من الحُكَّام أن يصلوا إلى سُدَّة التحكُّم بها، والسيطرة على مقاليد أمورها، واللعب بمصير أبنائها.

والمثال على ذلك في تأريخنا الإسلامي الروح المسؤولة، والنهوض الواعي الذي نبت ونشأ في أبناء الأمة الإسلامية حين وُلِدَ الإسلام، وأشرق نوره على العالمين؛ فهو الذي جعل هذه الحضارة الإلهية المُشرقة تمتدُّ شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً في أنحاء الأرض المُترامية، وبه انتصر المُسلمون وقضوا على حضارتين جاهليَّتين (حضارة الروم وحضارة الفرس). فيوم كان

المسلمون يعيشون مسؤولياتهم ويتحمَّلونها ويعملون بها بكل وعي استطاعوا أن يهزموا تَيْنِكَ الإمبراطوريَّتين العظيمتين، فقد اختلط بلحمهم ودمهم نِداء رسول اللَّه ﷺ ووصيته التاريخية الكبرى، ألَّا وهي: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1].

ولقد بلغت عندهم الشَّجاعة في تحمُّل المسؤولية أنهم كانوا لا يهابون في الحق أحداً إلَّا اللَّه، وقد برهنوا على ذلك في مواقف عديدة.

سبب تخلف المسلمين

وبهذه الروح الشُّجاعة الأبيَّة في تحمُّل المسؤولية امتدَّت كلمة لا إله إلَّا اللَّه في آفاق الأرض الواسعة. فأين أصبح اليوم ترى هذا الحسُّ المسؤول والرُّوح الواعية، وما هي أسباب أُفُولهما في بلادنا الإسلامية، ولماذا بات أبناء الأمة اليوم لا يُدركون أهمية دورهم وخطره في رسم سياسة بلادهم الأمر الذي دفع بهم إلى الخضوع والخنوع تحت سيطرة حُكَّام أعمى الطغيان والغرور بصيرتهم!!

وإذا كان جواب هذه التساؤلات نجده فيما قدَّمناه آنفاً، ألا وهو الشعور بالمسؤولية وتحمُّل أعبائها، فبأيِّ تبريرات تَمَلَّص أبناء الأمة الإسلامية من أداء دورهم ومسؤوليتهم المُلقاة على عاتقهم؟

---

(١) بحار الأنوار، الشيخ المجلسي، ج٧٢، ص٣٨.

لعل أول منافذ الهروب من المسؤولية والدور المطلوب إزاء الواقع السياسي هو اعتقاد شعوبنا الإسلامية حين وقوع حدث سياسي كالانقلاب العسكري، أو التغيير في السُّلطة.. أن الأمر لا يخُصُّهم ولا يعنيهم، كما قيل قديماً: «ما لنا والدخول بين السَّلاطين». ولعل هذا هو أبرز التبريرات الواهية لعدم تحمُّل عِبْء المسؤولية التاريخية في بناء النظام السياسي.

وهم حين يُبَرِّرون تقصيرهم العظيم هذا الذي سيُسألون عنه يوم القيامة، ويُحاسبون عليه أشدَّ الحساب، يغفلون عن أن الواقع السياسي السلبي الذي وقفوا إزاءه موقف المُتفرِّج، لابد أن يشملهم بكل نتائجه وإفرازاته، ولابد من أن يصل لكل واحد من المجتمع الغاطّ في النوم نصيبه من المرارة والألم والاضطهاد.. فيصحو على كابوس جاثم على صدره يقطع عليه أنفاس الحرية والكرامة الإنسانية.

هكذا عاش الناس في العراق في أواخر الستينات، وبالأخص عام (١٩٦٨)، يوم تسلَّط أشرار البعث على السُّلطة، فقد كانوا مُنهمِكِين في مشاغلهم الدنيوية، غير آبهين بما يجري وراء الستار في بغداد. ولعل الكثير من العراقيين كانوا يجهلون خطر هذه العصابة التي أمسكت بِزِمَام الحكم، علماً أن لهم معها تجربة مُرَّة سبقت في عام (١٩٦٣) حيث كانت القفزة الأولى لهم على سُدَّة الحُكم في تاريخ العراق السياسي الحديث.

وعندما عاد شُؤم هذه العصابة العفلقية إلى العراق عام

(١٩٦٨) لـم تكـن قد كشـفت عن وجههـا القبيح خشـية حدوث ردود فعـل إزاءهـا، وحينما كشـفوا عن حقيقتهم لم يكن كشـفهم هذا مرة واحدة، بل حدث تدريجيًا، وعلى عدة مراحل.

ولعل ما يُبرِّر للشـعب العراقي سـكوته آنـذاك أنه كان يُعاني من مشاكل كثيرة، ولكن هذا التبرير غير مقبول أيضاً، لأن الشُّعُوب الأخرى كانت تُعاني أيضاً من المشاكل والمعاناة.. ومع ذلك فقد أسهمت في تغيير مصيرها.

إن الذي يجدر بحثه هنا هو أننا -نحن المسلمين- لماذا نَغُطُّ في سُبات عميق، ولمـاذا لا نمتلك الحركة والنشـاط، بينما حقَّق غيرنا من الأمم ما أرادوا تحقيقه في بُرْهَة زمنية قصيرة، كما حدث -مثلاً- لجُمهوريات الاتِّحاد السـوفياتي السابق المسيحية المُطِلَّة على البلطيق، حيث نالت اسـتقلالها خـلال فترة وجيزة من خلال نهضة شـعبية، في حين لم تسـتطع الجُمهوريات الإسلامية العشر بلوغ أهدافها النهائية في الاستقلال، رغم ما لهذه الجُمهوريات من مزايـا هائلة في الثروات والإمكانات حيث النفط والغاز والمعادن الوفيرة.

ترى لمـاذا فقد أبنـاء هـذه الجُمهوريات وعيهم ونشـاطهم السياسـيين، وروحهم الاستقلالية كمسلمين ينبغي لهم أن يعيشوا أحراراً مُستقِلِّين؟

وفـي يوغوسـلافيا -قبل أن ينهار كيانهـا- حيث تعيش أكبر

جالية مسلمة في أوروبا، لا نجد أثر لحركة أو نشاط إسلامي فاعل، مع أنهم يُشكّلون الغالبية في جُمهورية البوسنة والهرسك، في حين أن الحركة الانفصالية لكرواتيا قائمة على قَدَمٍ وساق.

وفي إفريقيا نجد أن أكبر بلد إسلامي بعد مصر وجنوب إفريقيا يخرج من منظمة الوحدة الإسلامية بتأثير من العناصر المسيحية الفاعلة هناك، وهي القِلَّة القليلة بالنسبة إلى الأغلبية المسلمة. لماذا كل ذلك؟

ولماذا نَغُطُّ نحن في سُباتنا، ونعيش التمزُّق والتخلُّف، في حين يقطع غيرنا أشواطاً واسعة في التقدُّم وعلى جميع الأصعدة؟ ولماذا نحن مُتخلِّفون سياسيًّا في حين يعيش غيرنا الوعي والحركة والنشاط، بحيث أمسكوا بأيديهم سيف تقويم الحاكمين الذي كان بأيدينا في أمسنا الزَّاهر؟

الشعور بالمسؤولية سبيل الخلاص

ترى أين تكمُن المُشكلة وسِرُّ المعاناة؟

إن مُشكلة المسلم اليوم هي أنه لا يشعر بالمسؤولية، ولا يتحمَّل أعباءها.

فنحن لو أمعنا النظر في حقيقة ديننا، وفي مُرتكزات النهضة الرسالية، لوجدناها قائمةً على أساس الشُّعور بالمسؤولية الكبرى. فديننا هو دين المسؤولية والوعي، ودين التحدِّي وتفجير

الطاقات.. إنه الدين الذي يجعل الإنسان يعيش ويحيا في إطار مبادئه وأهدافه وقيمه الرسالية، ويدفعه إلى أن يُفكِّر في شرفه وكرامته وعِزّته قبل أن يُفكِّر في بطنه كيف يملؤها؛ إنه الدين الذي ينهى مُعتنِقه عن أن يُصبح كالبهيمة همُّها علفها.

لقد انعدم -للأسف الشديد- الإحساس المسؤول الذي هو بمثابة النور في القلب، وانعدامه يعني حياة الظَّلَمة والظُّلمات.

إننا -كمسلمين- يجب أن نُفكِّر في شخصيتنا الرسالية، ووجودنا، وكرامتنا بين الأمم. فنحن لم نُخلَق لنكون آلات تُسخَّر من قِبَل الآخرين لتحقيق أهدافهم الشريرة، ومصالحهم ومطامعهم فينا وفي وجودنا التاريخي. فلنحذر من أن نكون في صف أولئك الذين يُخاطبهم القرآن قائلاً: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾(١).

وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: عندما وُلِدْنا، وقَدِمْنا إلى هذه الدُّنيا أليس من حقنا أن نتمتَّع فيها، ونعيش في ظل حياة سعيدة؟

نعم؛ من حقك أن تتمتَّع، فتحمُّلك للمسؤولية ليس معناه أن تهجر الحياة ولذائذها وما قُسِمَ لك فيها من رزق كريم، بدليل قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(٢).

(١) سورة الفرقان، آية ٤٤.
(٢) سورة الأعراف، آية ٣٢.

فالنظرة القرآنية في هذا الخصوص هي نظرة انفتاحية تدعو إلى التمتُّع بلذائذ ومباهج هذه الحياة في إطار الشرع.

إن الذي أعنيه هنا هو أنك أيها الإنسان المسلم ليس بإمكانك أن تستمتع بلذائذ وطيِّبات تلك الحياة الحُرَّة الكريمة وقد سلَّمت زمام أمرك ومصيرك في يد مجنون أو مجموعة حمقى لا يعرفون معنى للقيم والمثل الخَيِّرة. فهل يُمكنك أن تطمئن إلى سائق مجنون، فتركب السيارة معه، وتُسلِّمه مقودها؟

والنبي ﷺ يُجسِّد لنا هذا المعنى فيما رُوي عنه: «إِنَّ قَوْماً رَكِبُوا البَحْرَ فِيْ سَفِيْنَةٍ فَاقْتَسَمُوْهَا، فَأَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَكَاناً، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمُ الفَأْسَ فَنَقَرَ مَكَانَهُ. فَقَالُوا: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: مَكَانِيْ أَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتُ. فَإِنْ أَخَذُوْا عَلَىٰ يَدَيْهِ نَجَوْا وَنَجَا، وَإِنْ تَرَكُوْهُ غَرِقَ وَغَرِقُوْا. فَخُذُوْا عَلَىٰ أَيْدِيْ سُفَهَائِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكُوْا»[1].

فبلادنا - نحن المسلمين - هي كالسفينة، وهي اليوم أسيرة الشَّهوات والحماقات والطيش المجنون.

وهكذا فإن الشعور بالمسؤولية هو المُهم، وهو دواؤنا وخلاصنا من تلك الأوضاع. فالمُشكلة قائمة في نفوسنا نحن الذين لا نحسب للمسؤولية حسابها قبل أن تكون في حُكَّامنا الطُّغاة؛ إنها تكمُن في سُكوتنا وخُضوعنا لكل من هبَّ ودبَّ.

---

(١) مسند ابن المبارك، عبدالله بن المبارك، ص٤٢.

إننا جميعاً مسؤولون رجالاً ونساءً وشيوخاً وأطفالاً، فكل واحد منا مسؤول، ومسؤوليته بحجم موقعه، وبحدود إمكانيَّته، كما قال اللَّه تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[1]. وربما يقول البعض: إن الجهاد ساقط عن النساء، وأن جهادها هو حسن تبعُّلها، ولكن هل يسقط عنها أيضاً واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الجاهل، وتعلُّم الدين والالتزام بالواجبات؟

وللأسف فإننا عندما نُستصرَخ لحمل أعباء المسؤولية والنهوض، لا نُعطي أذناً صاغية، وإذا ما أصغينا ألقينا بالمسؤولية على عاتق العلماء، وبرَّأنا ساحتنا، وكأن المسؤولية وُجِدَت لتُلقى على عاتق العلماء فحسب، في حين أن كُلًّا منا لابد أن يعمل بمسؤوليته وفي إطار مقدرته وموقعه.

ترى لماذا نحن المسلمين الذين كُنَّا في يوم من الأيام نقف ونتحدَّى أشمخ الأُنوف، غدونا اليوم وقد ضُرِبَتْ علينا الذِّلَّة والمَسْكنة، فهل ترك اللَّه سبحانه قرآنه ودينه ليُكونا تحت رحمة الآخرين؟

حاشا اللَّه أن يفعل ذلك، بل إن عِلَّتنا تكمُن في داءين رئيسين. ويبدو أن هذين الداءين كانا موجودين في بني إسرائيل، حيث كانوا يعيشون الروح السلبية اللامسؤولة نفسها. وعلاج هذين الداءين تجدهما في قول اللَّه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ

(1) سورة البقرة، آية ٢٨٦.

صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

والقرآن حين يطرح هذا الموضوع فإنه لا يطرحه كقصة نتسلَّى بها، بل كتذكرة وعبرة وموعظة لنا وللأجيال القادمة. فمواعظ القرآن وعِبَرُه ودُروسه مصابيح تضيء لنا سُبُل الحياة المُظلمة.

الحالة القشرية من أسباب تخلفنا

الدَّاء الأول هو الحالة القشرية التي نعيشها في حياتنا. فليس كل من ادَّعى أنه مُسلم صار مؤمناً. فالإسلام ليس كلمة تُقال باللسان، بل إن الانتساب الحقيقي إلى الإسلام يعني تحمُّل عبء المسؤوليات التي يُلقيها هذا الدِّين المُبين على عاتق مُعتنِقيه المُؤمنين به، والصَّادقين في إيمانهم. فالالتزام الدِّيني يدعو إلى العمل الرسالي والجهاد في سبيل اللّٰه.

(١) سورة البقرة، آية ١١١ - ١١٥.

ولبيان هذه الحقيقة أشار القرآن الكريم إلى أن بني إسرائيل تنصَّلوا عن تحمُّل مسؤولياتهم، ولم يعودوا يعملون بها ظانِّين أن الجنة إنما خُلِقَتْ لهم وحدهم، فما هي أهمية المسؤولية إذا كان كل شي قد هُيِّئ لسعادتهم في الآخرة؟!

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ﴾[1].

فكانت هذه هي أحلامهم والوهم الذي عاشوه فضلُّوا وأضلُّوا. وهنا يدعوهم كتاب اللّه لأن يُقيموا دليلهم، ويُبرهنوا على صحة ادّعائهم في قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

فهل يكفي مجرد الانتساب لساناً إلى اليهودية والنصرانية أو حتى إلى الإسلام لضمان الجنة ونعيمها؟

إن هذا وحده ليس بكافٍ مُطلقاً. إذن فما هي شروط دخولها؟

هذا ما تُخبرنا به الآيات القرآنية: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3].

فالشرط الأول هو أن يُسْلِمَ الإنسان وجهه للّه؛ أي أن يُسْلِمَ

(١) سورة البقرة، آية ١١١.
(٢) سورة البقرة، آية ١١١.
(٣) سورة البقرة، آية ١١٢.

فيما يأمره به اللَّه، ويُظهر الطاعة للَّه تعالى قولاً وفعلاً. فليس من حقه أن يفتعل ديناً لنفسه، ويتعبَّد في إطاره. فالدِّين للَّه، والمصلحة الإلهية هي فوق كل المصالح مهما كانت. وعلى هذا فإن الشرط الأول هو القبول بدين اللَّه وإن اصطدم بمصالحنا الذاتية.

أما الشرط الثاني فهو الاحسان؛ أي أن يكون الإنسان مِعْطاءً مُضَحِّياً من أجل الآخرين من إخوانه المؤمنين.

التمزق نتاج القشرية

بعد ذلك ينتقل السياق ليُشير إلى حالة التمزُّق والتشتُّت والطائفية الناجمة عن الحالة القشرية، فيقول اللَّه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1].

فقد كان خلافهم هذا يدور حول مجرد الانتساب اللفظي لا الانتساب الجوهري المُتجسِّد في الإيمان الصادق، والعمل الصالح، وحمل أعباء المسؤولية التاريخية في الإصلاح والهداية والإرشاد.. فهم يختلفون في هذه الأمور السطحية القشرية رغم ما يعلمونه ويقرؤونه في كتبهم السماوية.

ونحن أيضاً لا نكاد نختلف عنهم اليوم فيما وصلنا إليه من حال يرثى له من التمزُّق وتشتُّت الصُّفوف، وضياع الطاقات،

---

(١) سورة البقرة، آية ١١٣.

والتملُّص من المسؤولية التي هي الأمانة الإلهية التي اؤتمنا عليها، كما قال اللّه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1].

إننا ندَّعي الصَّلاح، وكل واحد منا يُحاول أن يُزكِّي نفسه بعد أن يدفع عن نفسه ذُنوب التقصير بمُختلِف التبريرات، وبذلك نتمزَّق اجتماعيًّا، ويضعف إيماننا.. ولكن كل شيء سينكشف يوم القيامة، ويبين بأوضح صورة، وعندها ستظهر حقيقة أعمالنا. فلا ينبغي أن نفتخر في هذه الدنيا بما قُمنا به، وما أدَّيناه من أعمال صالحة، بل الفخر الحقيقي يظهر يوم الحساب، حيث تُزكَّى الأنفس.. والفخر الحقيقي يكون عندما ترجح كفَّة صالحاتنا.

ثم ينتقل السياق ليستعرض جانباً مما أفرزته تلك الروح الطائفية التي سادت عند أهل الكتاب، فيقول اللّه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾[2].

فَكُلٌّ يُحذِّر صاحبه من الذهاب إلى المسجد الفلاني أو العالم الفلاني وبذلك هجرت أماكن العبادة، وأصبحت في حكم الخراب، لأن خرابها بِقِلَّة المُتعبِّدين والمُصلِّين فيها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[3].

(١) سورة البقرة، آية ١١٣.

(٢) سورة البقرة، آية ١١٤.

(٣) سورة البقرة، آية ١١٤.

نكران المسؤولية مصدر الخزي

فمصدر الخزي في الدنيا -كما اتّضح لنا- هو نُكران المسؤولية، وعدم تقبُّلها، وتحمُّل أعبائها. أو بعبارة أخرى: هو خيانة الأمانة الإلهية التي أُودعت لدى الإنسان يوم خُلِق وأعطى موثقاً بحملها.

وفي نهاية المطاف لابد من أن نُؤكّد مُجدَّداً على أهمية تحمُّلنا للمسؤولية والأمانة الإلهية المُلقاة على عاتقنا، وأن نُدرك أن المسؤولية إنما هي التسليم لأوامر اللّه، والإحسان إلى الناس، وإصلاح الذات، وتعاملنا الطيب مع الآخرين، والتضحية من أجلهم.. وبالتالي فإن الوئام والانسجام سيسودان المجتمع بأجمعه، وستسوده روح الشعور بالمسؤولية للسير نحو تحقيق الأهداف، وتأدية الأمانة الإلهية، وعندها سيكون من نصيبنا التسديد والتوفيق والنصر الإلهي في كل حركة وعمل وجهاد نخوضه في سبيل اللّه تعالى.



مواجهة التخلف

لو علم الفلَّاح -الذي أُوكِلت إليه مهمة حرث الأرض واستصلاحها وزراعتها- أن تكاسله عن هذه المهمة، وتقاعسه في عمله ماذا ستكون نتائجهما.. ولو علم المهني أو العامل في السُّوق أو المصنع ما هي النتائج الرهيبة التي سيُؤدي إليه تهاونه في عمله.. ولو علم الطالب في المدرسة والجامعة والأستاذ والدكتور والعالم أن تقاعسهم وعدم قيامهم بالمهام المُوكَلَة إليهم بالشكل المطلوب سيُؤديان إلى نتائج وخيمة.. لما تخلَّفت أمتنا، ولما نزلت علينا كل هذه المصائب والويلات.

عدم تصور النتائج عامل تخلفنا

إن مُشكلة الإنسان تكمُن في أنه لا يتصور النتائج، بل يُركِّز اهتمامه بالأفعال القريبة منه. فالإنسان الذي يمدُّ يده إلى الآخرين ليُطعموه ما يسدُّ به جوعه، هذا الإنسان ليس جديراً بالاحترام، بل ليس جديراً بالبقاء. فالفلَّاح الذي لا يستصلح الأرض ويتكاسل،

لا يتصوَّر أن بلاده في هذه الحالة ستضطر إلى أن تستجدي من الآخرين في طعامها وفي أبسط الحاجات. وكذلك عُمَّالنا في المصانع لا يُفكِّرون أن تهاونهم وتقاعسهم وعدم جديَّتهم في العمل، كل ذلك سيُؤدي إلى حالة الإحباط والانتكاسة في صناعتنا؛ فإذا بنا نحتاج إلى الغرب والشرق، ابتداءً من الإبرة وحتى الطائرات.

إن الجامعيين، وأساتذة الجامعات، ومدراء المُختبرات، والعقول المُفكِّرة التي تستطيع أن تُغيِّر الحياة بإبداعاتها واكتشافاتها، لا يتصوَّرون هذا التخلُّف وأبعاده الرهيبة في حياة الأمة، لا يتصوَّرون أن هذا التخلُّف يعني الهزيمة في المعارك والذُّل والتدهور الاقتصادي والتراجع الأخلاقي.. يعني أن نكون عبيداً للآخرين وأذلَّاء لهم، إنهم لا يتصوَّرون ذلك، ولو تصوَّروا لأبدعوا وحوَّلوا جامعاتهم ومعاهد بحثهم إلى معابد يعبدون اللَّه فيها من خلال مواصلة العمل ليل نهار، ومُقاومة كل الصعاب، وانصبَّ تفكيرهم على النتائج.

كيف نصنع من الهزيمة نصراً؟

لنسأل أنفسنا: لماذا نجد الشعوب التي انهزمت عسكريًّا كالشعب الألماني والياباني قد نهضت نهضة علمية واسعة؟ فألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية تحوَّلت إلى رُكام من الخرائب والأنقاض؛ فالمصانع كانت مُعطَّلة، والمُدن مُهدَّمة، وعدد القتلى

ارتفع إلى عشرة ملايين عدا المجروحين والمُعوَّقين، وخَيَّمَ الحزن بسحبه السوداء على مرافق هذه البلاد.. ولكن من رحم الأنقاض، ومن رُكام الخرائب، ومن المصانع المُهدَّمة، ومن الرجال المُعوَّقين، والحزن والألم والهزيمة.. صنعوا هذه المعجزة اليوم. فألمانيا تُعدُّ الآن من أقوى الدول الصناعية في العالم.

وكذلك الحال بالنسبة إلى اليابان التي أُلقيت عليها قنبلتان نوويتان لأول مرة في تأريخ البشرية، فَدُمِّرت صناعاتها، وتهدَّمت مدنها، وقُتِل شبابها.. ولكنها على الرغم من كل ذلك استطاعت أن تهزم الهزيمة، وأن تبدأ مسيرة الإعمار والبناء، حتى أنها لم تسبق أوروبا فقط، بل أميركا أيضاً.

لماذا لم نُفكِّر في هاتين التجربتين وفي تجارب تأريخية أخرى؟ ترى كيف نصنع من الهزيمة نصراً، وكيف نستوعب دروس الهزائم؟

إن هناك عاملاً أساسيًا وهو أن نعرف أن النتائج لا تكون إلَّا في سياق العوامل والأهداف. فالهزيمة لا تنزل علينا كصاعقة من السماء، كما أن النصر لا يُقدَّم لنا في طبق من ذهب، بل يجب علينا أن نصنعه بأيدينا بعد التوكُّل على الله تعالى.

إن الهزيمة هي نتيجة إنسحابنا من الحياة ومن العمل، فالمصانع -على سبيل المثال- هي المصانع نفسها التي نجدها في أوروبا ولكن عاملنا -للأسف الشديد- لا يُبدي شعوراً

بالمسؤولية، فنراه لا يلتزم بوقت العمل، كما لا يهتم بدقة الإنتاج.. وهكذا الحال بالنسبة إلى المهندس والمدير.. فالكثير من مصانعنا في العالم الثالث وفي البلدان الإسلامية تعمل وتنتج بخسارة دائماً، ذلك لأن العامل ليس جديًّا، والمهندس لا يُبدي اهتماماً بعمله، والمدير لا يشعر بالمسؤولية، والمُوظَّف يرتشي، والناس لا يبالون...

إن كل تلك المظاهر السلبية تُسبِّب التخلُّف وتبعاً لذلك صرنا نُذَلُّ ونُهان، ونُسحق ونُدمَّر.. من قِبَل القوى الكبرى في العالم.

والسبب في كل ذلك هو أننا قد أصبحنا ضعفاء، والعالم لا يحترم إلَّا القوي. ولذلك قال اللّه تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1]. ولكن أين قوتنا؟

لو علم المسلمون وكل واحد منا أن كسله وتقاعسه وتراجعه النفسي هو السبب في كل تلك المآسي والويلات، لكنا جِديِّين في مقاومتها، ولما هدمنا اقتصاد بلادنا. ولكن مُشكلتنا هي أننا لا نعتبر التهاون في العمل جريمة.

من هنا عليك أيها الإنسان المُسلم ألَّا تستهين بالأعمال والمهام المُوكَلة إليك، وعليك أن تعرف قيمة نفسك، وأن تُفكِّر

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

في المحتوى والحقائق، والأسباب الحقيقية لتخلُّف الأمة، لا في الأسباب الظاهرية والجوانب الفوقية والقشرية.. فلننظر إلى أيِّ مدى غَيَّرنا من أنفسنا، وكم أخلصنا لقضيتنا، والى أيِّ حدٍّ تدرَّجنا في مدراج الإنسانية.

نحن إذا لم نُغيِّر أنفسنا فإن واقعنا سيبقى على ما هو، لقد حبانا اللّٰه تعالى بنعم كثيرة وهائلة منها النفط، هذه المادة الحيوية التي تعتبر الآن الدم الذي يجري في اقتصاد العالم، فلنسأل أنفسنا؛ ماذا عملنا به؟

إن الإسلام هو دعوة إلى النجاة وإلى الحياة، ولكن الإنسان هو الذي يصنع مصيره السيئ بيديه.

فالإنسان الذي لا يملك إيماناً صادقاً، وعملاً جديًا بتعاليم القرآن، لا يُمكن أن يحصل على الدنيا، ولا يُمكن أن يستغل الثروات والكنوز من حوله، وبذلك تسيطر عليه التبعية للآخرين، ويظل ذليلاً ضعيفاً لا يقوى على مقاومة ومحاربة مستغليه ومستعمريه.



عوامل النجاح

في تضاعيف الآيات القرآنية الكريمة مجموعة متكاملة من التعاليم الحياتية التي تمسُّ حياة الإنسان، وتبثُّ فيه روح النجاح، وتمنحه الأساليب التي تُمكِّنه من السيطرة على مقدرات الأرض، ذلك لأن النجاح يمثل هدفاً سامياً من أهداف الإنسان، وهو عبارة عن وصول الإنسان إلى أهدافه بأقل جهد ممكن، وفي أقل وقت ممكن.

سر النجاح

وهذا النجاح يبتغيه الإنسان ويسعى إليه، ولكن الكثير من الناس لا يحققونه. فما هو السر الذي يجعل بعض الناس ناجحين، في حين يفشل الآخرون؟

القرآن الكريم يكشف النقاب عن هذا السر، ويرى أن ضرورة النجاح تعود لسببين:

١ - لكي يصبح كل إنسان ناجحاً، ذلك لأن القرآن جاء رحمة

للعالمين، ونوراً للإنسانية، ومُنقذاً لهم من الظُّلمات إلى النور، وهادياً لهم إلى صراط العزيز الحميد.. فهو لذلك يُريد لعباده أن ينجحوا.

٢- إن المؤمنين الصادقين العاملين بكتاب اللّه يُشكّلون التجمُّع الإيماني، ويُؤلفون الأمة الإسلامية؛ فإذا كان أفراد هذا المجتمع الإسلامي ناجحين، وإذا كان أبناؤه قادرين على الوصول إلى أهدافهم كأفراد، فإنهم بالطبع سيكونون ناجحين كمجتمع. فالتجمُّع يُشكّله الأفراد الذين ينتمون إليه، فلو كان هناك تجمُّع من الكسالى والمتقاعسين من الذين تراكمت على قلوبهم العقد والسلبيات، فهل يُمكن أن نُطلق صفة النجاح على هذا التجمع؟

وهكذا لابد أن تكون روح النجاح مبثوثة في كل فرد من أبناء الأمة الإسلامية، والقرآن الكريم يُبيِّن لنا أساليب النجاح. وقد يتبادر إلى الأذهان أن القرآن الذي هو كتاب اللّه الأعظم، والآية الكبرى التي تنزَّلت على قلب سيدنا ونبينا محمد ﷺ، يتحدَّث عن بعض القضايا التي تبدو بسيطة، كقول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1].

ومن ضمن تفسيرات هذه الآية أنها تعني أمر المؤمنين عدم المشي أمام رسول اللّه ﷺ. ترى ما هي علاقة المشي أمام

(١) سورة الحجرات، آية ١.

رسول الله ﷺ بأحاديث القرآن التي تتناول عادة الكون والزمان والتاريخ والمستقبل وما إلى ذلك من القضايا الهامة؟

وبالإضافة إلى ذلك يُعالج القرآن قضية أخرى تبدو بسيطة مُتمثّلة في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾[1]، وقضية أخرى من مثل الانتظار وعدم مُناداة النبي ﷺ بصوت عالٍ، ترى ما هي علاقة هذه الأمور البسيطة بالقرآن الذي هو كتاب الله الأعظم؟

وجواباً على ذلك نقول: إن روح النجاح تعتمد على مجموعة من التعاليم، لو فقدنا جزءاً منها لم يكن النجاح حليفنا. وعلى سبيل المثال فإن التجمُّع الإيماني الذي لا يحترم قيادته، يعني أنه لا يحترم قيمه، وبالتالي فإنه سوف لا ينجح في الحياة. في حين أن التجمُّع الإيماني الذي يحترم قيادته، ويُقدِّس قيمه، سيكون مصيره النجاح. وهذه معادلة لا تقبل الخطأ.

وقصة تلك الآيات أن بعضاً من الأعراب الأفظاظ البعيدين عن السلوك الحضاري كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ، ويقومون ببعض التصرُّفات المُنافية للأدب كأن يمدوا أرجلهم أمام رسول الله، ويُخاطبوه ﷺ بجفاء قائلين: حَدِّثنا يا محمد.

هذه القضايا قد تبدو بسيطة لا تستحق الاهتمام، ولكنها تلعب دوراً هامًّا في تحقيق النصر أو التسبب في الفشل والهزيمة،

(١) سورة الحجرات، آية ٢.

ولذلك اهتم القرآن الكريم بها قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

فالحديث -إذن- حول رفع الصوت عند رسول اللّه يتساوى في الأهمية مع الحديث حول فضّ النزاع بين طائفتين من المؤمنين، ولذلك ذيّل اللّه تعالى تلك الآيات بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[2]. للفت الانتباه إلى أهمية تلك القضايا. فالذي يهتم بالقضايا الصغيرة، والمسائل الجزئية، يهتم في الوقت نفسه بالمسائل الكلية. أما الإنسان الذي تعوَّد حالة اللامبالاة في حياته، فإن المسائل الصغيرة والكبيرة تتساوى عنده.

وقد كان فقهاؤنا ﷺ يهتمون بالأمور الصغيرة ومن ضمنها المستحبات. وفي هذا المجال يُروى عن العالم الكبير الشيخ الطوسي مُؤسِّس الحوزة العلمية في النجف الأشرف وصاحب كتاب (مصباح المُتَهجِّد)، أنه كان يُطبِّق تعاليم هذا الكتاب على نفسه بحذافيرها، علماً أن هذا الكتاب يحتوي على جميع المستحبات تقريباً.

---

(١) سورة الحجرات، آية ٢.

(٢) سورة الحجرات، آية ٩.

وسائل النجاح

وهكذا فإن التعاليم الحياتية في القرآن هي سِرُّ نجاح المُؤمن، وقد كان أهل البيت عليهم السلام وأصحابهم يهتمون بهذه التعاليم، سواء ما يخصُّهم كأفراد، أو ما يخصُّ التجمُّع الذي يُحيط بهم.

فالإنسان الرسالي المُنتمي إلى خطٍّ الإسلام لابد أن يعرف كيف ينتصر وينجح في الحياة، وكيف يقود هذه الحياة.. فإن لم يكن صاحب الخطِّ الرسالي مُديراً ناجحاً، أو عالماً ناجحاً، أو كاتباً مُوفَّقاً.. فإن الخطَّ سيفشل كُلُّه، ولا يفيد في هذا المجال أن نقول: إن خطَّنا مُتقدِّم ويمتلك إمكانات كبيرة.. فالغرور هو بِضاعة العاجزين، فعلى الإنسان أن يُحدِّد هويته، وأن يقوم بدوره في إنجاح هذا الخطِّ.

ولقد كان أهل البيت عليهم السلام يُوصُون شيعتهم ومواليهم بضرورة العمل والنشاط من جهة، وبحسن التعامل مع الناس، وكيفية جذب قلوبهم من جهة ثانية. ومن خلال ذلك يُعلِّمونهم كيفية القيادة، بحيث يتحوَّل كل فرد منهم إلى قائد. ولكننا للأسف لا نجد تطبيق هذه التعاليم الحضارية والحياتية بين المسلمين رغم وجودها بين دفَّات كُتبنا ومصادرنا من مثل كتاب (مكارم الأخلاق) و(حِلْية المتقين) و(بحار الأنوار) و(وسائل الشيعة).. فهذه الكتب ملأى بالتعاليم الحياتية التي تكفل لنا النجاح في جميع مجالات حياتنا، ولكننا لا نقرؤها وإذا قرأناها فلا نأخذ

بنظر الاعتبار أنها تعاليم مُرتبطة بكيفية تحرُّكنا في الحياة.

ولكي نُصلح هذا الأمر، يجدر بكل مُسلم يُحبُّ الخير لنفسه ولمجتمعه أن يبحث عن النجاح وأسلوب تسخير الحياة.. فالآخرون لم يستطيعوا السيطرة علينا إلّا بما يمتلكون من وسائل النجاح. وعلى سبيل المثال فإن اليابانيين لم يغزوا أسواق العالم ومنها أسواق أمريكا إلّا بما امتلكوا من أفكار وأساليب.. فالمُدير الناجح هو الذي يصنع المصنع الناجح، والمصنع الناجح هو الذي يغزو الأسواق التجارية الواسعة. وهكذا الحال بالنسبة إلى مجالات الحياة الأخرى.

النجاح حصيلة الإيمان

في القرآن الكريم آيات عديدة تُلهمنا كيفية العيش في الحياة، وكيفيـة توجيه الصِّراع ومُواجهة الصُّعوبات بالشـكل المناسـب.. والكثيـر مـن النـاس يمـرون بهـذه الآيـات مـروراً عابـراً دون أن يسـتوحوا منها التوجيهـات التي تفيدهـم في حياتهـم، وهؤلاء هم الفاشلون في الحياة.

فالإيمان العادي الظاهري لا يمكن أن يتمخَّض عن النجاح، بـل الإيمـان الحق والواعي هـو الذي يعني النجـاح. فأما أن ينطق الإنسان بالشهادتين، ويُصلي باتِّجاه القِبْلة وما إلى ذلك، فهل هذه الممارسات تعني النجاح والنصر؟

كلا؛ لأن النصـر والنجاح روح لابد أن يستلهمها الإنسـان مـن جوهر الإيمان وحقيقته، من النـور الذي ينبعث في القلب من القرآن الكريم وبصائره وتوجيهاته.

وعلى سبيل المثال فإن الذين يدرسون في المعاهد العلمية

إنما هم يتعلمون حروفاً، ويستوحون أفكاراً.. والمهم هو مدى تأثير تلك الحروف والأفكار في صياغة شخصياتهم. فحقيقة أنفسهم لا يمكن أن تظهر إلَّا عند مُواجهة الأحداث، ودخول ساحات العمل.

خصائص النجاح

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال المهم التالي: ماذا علينا أن نفعل عند دخول ساحة العمل لكي نكون ناجحين؟

وللجواب عن ذلك نقول: إن هناك بعض الخصائص التي لابد أن يتحلَّى بها الإنسان، والبعض منها يُمكن للإنسان أن يستوحيها خلال الصَّراع والمواجهة.

من ضمن هذه الخصائص اتِّهام النفس باستمرار، وعدم الغرور والعجب، والثقة بالله، ورفع مستوى التقوى، وترويض النفس على الأعمال الشاقة.

وعلى هذا فلابد أن ننظر إلى الحياة على أنها حرب، إلَّا أن الفرق بينها وبين الحرب أن الأخيرة صراع مُركَّز ومُكثَّف، في حين أن الحياة هي حرب مُوزَّعة. فالإنسان يعيش الصِّراع، سواء مع نفسه أم مع الشيطان أم مع الطواغيت وما إلى ذلك؛ فهو -أي الصِّراع- سِمَة من سِمَات الحياة، ولابد من الاستعداد لهذا الصِّراع، فكلَّما كان الاستعداد أفضل استطعنا أن نُدير الصِّراع غداً بشكل أفضل. فالمفروض ألَّا يكون في حياتنا مجال للكسل

والتهاون، واللامبالاة..

وثمة خصائص أخرى ذكرها القرآن الكريم في سورة مريم. ومن الجدير بالذكر أن هذه السورة المُباركة تتضمَّن برامج وإرشادات قَيِّمة لكيفية خوض الصِّراع في الحياة، وتحدِّي الصِّعاب؛ فمريم عليها السلام تلك الفتاة الباكرة الصغيرة التي لم تَرَ رجلاً في حياتها، لأنها كانت قد اتَّخذت من دون الناس حجاباً لعبادتها في مكان شرقي من بيت المقدس، فكانت تتعبَّد بعيداً عن الناس جميعاً، وإذا بها تُواجه رجلاً سويًّا الذي لم يكن سوى روح اللَّه مُتجسِّداً في صورة هذا الرجل، فيهبها الخالق عز وجل غلاماً، فتعيش حالة الحمل ومشاقِّه وهي وحدها بعيدة عن أهلها، لأنها خرجت من بلدها، وهامت لوحدها في الصحراء ستة أشهر على ما تُصرِّح به بعض الروايات.

ومن المعلوم أن المرأة في هذه الحالة تكون في أشدِّ الحاجة إلى من يُقدِّم العون لها من النساء، ومع ذلك فقد واجهت هذا الظرف كالجبل الأشم، ثم هزَّت النخلة بعد ذلك كما يُشير ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾[1]، وشربت من الماء الذي جرى أمامها، ثم قرَّت عينها بوليدها.

وبعد، فهذه هي مريم البنت والمرأة المُتعبِّدة، انظروا إلى

(١) سورة مريم، آية ٢٥.

شجاعتها، وصلابة عودها، وتحمُّلها الحياة القاسية في سبيل اللّه تعالى، وذلك بفضل امتلاء قلبها بالإيمان، وتوكُّلها المُطلق على اللّه. وهذا درس للمرأة، خصوصاً في أيام الحمل والولادة.

أما الدرس الآخر للنساء والرجال على حدٍّ سواء فيتمثّل في قوله تعالى حكايةً لقصة مريم عليها السلام: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا﴾[1].

فإذا كنتَ محقًّا، وسائراً في الطريق السَّوِي، فلا تهتزَّ أمام الإعلام المُضاد، وكُنْ كالجبل الشامخ، كما فعلت ذلك مريم عليها السلام، حيث وقفت أمام قومها وهي مُوقنة بسلامة وصدق نيتها وطريقتها، ولذلك أتت به قومها تحمله. فلم تتهرَّب، ولم تنبذ الطفل، رغم أنهم اتّهموها قائلين: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًۭٔا فَرِيًّۭا﴾.

فلقد غادرتهم فتاة باكرة مُتعبِّدة، وإذا بها تأتيهم حاملة طفلاً.

﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍۢ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّۭا﴾[2].

فأشارت إلى وليدها طالبةً منهم أن يُكلِّموه، فأجابوها قائلين: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّۭا﴾[3].

---

(١) سورة مريم، آية ٢٧.

(٢) سورة مريم، آية ٢٨.

(٣) سورة مريم، آية ٢٨.

فبادرهم الطفل قائلاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾[1].

وهكذا يُلخِّص القرآن الكريم قصة عيسى بن مريم عليه السلام، هذه القصة المُثيرة للجدل والتعجُّب، من جميع أبعادها وفي بضع آيات، ويُبيِّن لنا صفات المسيح عليه السلام جميعها في آيات معدودة وهي:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[2].

لنكن منبعاً للخير والبركة

فهذه صفات أساسية وعملية، وهي من جانب آخر سلوكية أخلاقية، تكشف عن شخصية النبي عيسى عليه السلام وهي برنامج حياته. ثم يُبيِّن اللَّه تعالى بعد ذلك خصائصه السلوكية في قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[3].

وهناك صفات أخرى تكشف عن سلوكاته، ومن الواجب علينا أن نقف طويلاً عندها، وتتمثَّل الصفة الأولى في قول اللَّه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[4]. أي أن يكون الإنسان منبعاً للخير يتفجَّر منه المعروف كالشمس التي يتفجَّر منها الضوء

---

(١) سورة مريم، آية ٣٠.
(٢) سورة مريم، آية ٣٠ - ٣١.
(٣) سورة مريم، آية ٣٢.
(٤) سورة مريم، آية ٣١.

والإشعاع. فمن الصفات الأساسية للإنسان المُسلم أن تكون حركاته وأفكاره كلها بركةً وخيراً في كل مكان، وأن يُفكِّر في أن يُوصل خيره إلى الآخرين.

وفي مقابل ذلك نرى أن وجود بعض الناس هو مصدر للسلبيات، فهم يبثون من حولهم الإشاعات المُغرضة، في حين نجد آخرين يُعَدُّ وجودهم خيراً، فإذا جلس أحدهم معك أثار فيك الأمل، ونصحك وأرشدك.. فكلمته كلمة صادقة، وإذا رأى أذى أماطه عن الطريق، وإذا رأى مظلوماً بادر إلى الدفاع عنه، وإذا صادف محتاجاً قضى حاجته.. فحياته حياة طُهْر ونقاء ومعروف.

ومثل هذا الإنسان هو إنسان تقوم حياته على الأخلاق الفاضلة، لأن حياة الإنسان وحركاته محدودة، أما أخلاقه فأفقها واسع. ولذلك قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ»[1].

الانتفاع بتجارب الآخرين

ومن أبرز الخلفيات الأخلاقية الانتفاع من خبرة الآخرين وتجاربهم وإرشاداتهم، فكل واحد من الناس هو موسوعة من المعارف والتجارب.. والإنسان الذي يأخذ بهذه الطريقة في حياته سيكون -دون شك- من أعلم وأحكم وأعقل الناس، لأنه بعمله هذا سيجمع علم وعقل الناس وحكمتهم في ذاته، فيكون

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٤، ص ٣٩٤.

واحـداً كألف، ويكون كالمـرآة الصافية التي تنعكـس عليها صور الحياة كلها.

ثم يُشـير ربنا سبحانه إلى الصفة الأخرى في قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[1].

فالصـلاة هي العلاقة الروحية بالله، وعلى الإنسـان أن يلوذ بالصـلاة دائماً، وبالذات في لحظـات المواجهة الحادة، لكي يأتيه النصر سريعاً مُؤَزَّراً.

ومن الصفات الأخرى للمؤمن التي تتضمنها الآيات السابقة الصفة التي يُشير إليها تعالى بقوله: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾[2].

وللأسف فإن الكثير من المؤمنين يتصوَّرون أن الانتماء إلى الطريق الرسـالي يعني قطع كل الصِّلَات الاجتماعية، وهذا تصوُّر خاطئ. فبعض الناس يعيشون في قلوبهم حالة التمرُّد، فيتصوَّرون أنـه يجب عليهم أن يتمرّدوا دائماً على القانون، في حين أن العمل الرسالي ليس تمرُّداً، بل هو إصلاح. فنحن لا نُخالف القوانين لأننا نريـد أن نُخالفها، بل نُعـارض القانون الذي يُعـارض الدِّين. فمن الخطأ أن يجعل الإنسان نفسه مثلاً في المُخالفة والشِّقاق. وهذا ما يُشير إليه ربنا سبحانه في قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾[3].

---

(١) سورة مريم، آية ٣١.

(٢) سورة مريم، آية ٣٢.

(٣) سورة مريم، آية ٣٢.

ومن المُحتمل أن يكون المُراد بـ«الجبَّار» الذي يطلب الحق لنفسه، ولا يُريده لغيره، فهو لا ينظر إلَّا نفسه.

وبناءً على ذلك فلابد أن يُربِّي الإنسان نفسه تربيةً تجعله يُحِبُّ للناس ما يُحِبُّ لنفسه، ويُفكِّر في مصيرهم، ويعيش ظروفهم.

وبكلمة: كل صفات النجاح التي ذكرناها أعلاه، لا تتحقَّق في أي إنسان من دون ترسيخ الإيمان واستقراره في ذاته. فلكي نكون من الناجحين في كل مرافق الحياة، لا مناص من المزيد من الإيمان.

المحتويات